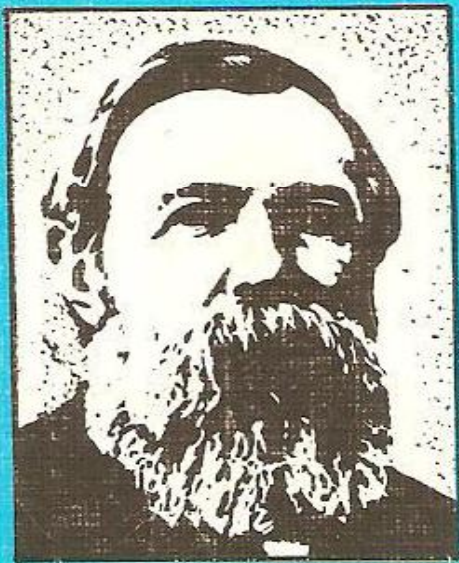


كوزنيتسوف

بصدد مؤلف انجلس
”لودفيغ فوريباخ ونهاية
الفلسفة الكلاسيكية الالمانية“

دلمر التقدّم موسكو



LUDWIG FEUERBACH

UND DER AUSGANG DER

KLASSISCHEN DEUTSCHEN PHILOSOPHIE

VON

FRIEDRICH ENGELS

REVIDIRTER SONDER-ABDRUCK AUS DER „NEUEN ZEIT“

MIT ANHANG:

KARL MARX ÜBER FEUERBACH
VOM JAHRE 1845.

خبر

www.n-gmr.com

STUTTGART

VERLAG VON J. H. W. DIETZ
1886.

فضلاً عن مؤلفات ماركس وانجلز
ولينين ، تصدر دار «التقدم» كرايس
مبسطة عن مؤلفات اعلام الماركسية-
اللينينية .

والكراس الذى كتبه الفيلسوف
والكاتب الاجتماعى والسياسى السوفيتى
فاسيلى كوزنيتسوف عن مؤلف انجلز
«لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية» يعرض ظروف واسباب كتابة
هذا المؤلف ، ومكان الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية التاريخى ودورها فى نشوء النظرية
الماركسية ، ويكشف جوهر الانقلاب
الثورى الذى قام به ماركس وانجلز
فى ميدان الفلسفة .



دارالتقدم موسكو

25 ك.

Кузнецов Н. В.

О РАБОТЕ Ф. ЭНГЕЛЬСА „ЛЮДВИГ ФЕЙЕРБАХ
И КОНЕЦ КЛАССИЧЕСКОЙ НЕМЕЦКОЙ ФИЛОСОФИИ“

На арабском языке

في سنة ١٨٨٥ صدر في شتوتغارت كتاب
الفيلسوف والعالم الاجتماعي الدانماركي كارل
نيقولاى شتاركة «لودفيغ فويرباخ» . هذا الكتاب
لم يكن بحد ذاته بحثا عميقا في نظرات
آخر ممثلى الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ،
ناهيك بان صاحبه لم يكن مفكرا اصيلا .
ولكن ظهور كتاب شتاركة جاء برهانا جليا
على انبعاث الاهتمام فى اوروبا بافكار الفلاسفة
الالمان العظام . ولهذا السبب بالذات اثار
اهتمام هيئة تحرير لسان حال الاشتراكية-
الديموقراطية الالمانية النظرى ، مجلة
« Neue Zeit » . فطلبت هيئة التحرير من
فريدريك انجلس ان يكتب نبذة انتقادية
عن هذا الكتاب ولكنها لم تتلق منه مجرد
تقرير قصير ، بل تلقت مؤلفا مستقلا اسمه
«لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية»

© الترجمة الى اللغة العربية - دار التقدم ، ١٩٨٧

طبع فى الاتحاد السوفيتى

K $\frac{0102010000-380}{014(01)-87}$ 202-87

الالمانية» . فى البدء صدر هذا المؤلف فى سنة ١٨٨٦ فى عدددين من المجلة ، ثم صدر بطبعة على حدة فى سنة ١٨٨٨ .
ما الذى حمل انجلس على الكتابة ؟
الرغبة فى الاعراب علنا عن رأيه فى كتاب الفيلسوف الدانماركى ، الذى لم يكن يستحق ، بنظره ، رفيع التقدير ؟ ام اسباب اعمق واهم ؟
قبل الاجابة عن هذين السؤالين ، لنأخذ بعين الاعتبار عاملا آخر ايضا . ذلك ان انجلس بذل كل وقته وقواه تقريبا فى المرحلة الاخيرة من حياته ، اى فى السنوات الاثنتى عشرة التى عاشها بعد وفاة ماركس ، لكى يهين للطبع مخطوطات صديقه العظيم الاقتصادية . فى ٢٢ ايار (مايو) ١٨٨٣ ، كتب انجلس الى يوهان بيكر ، القائد البارز فى الحركة العمالية الالمانية والعالمية :
«قبل كل شئ ، من الضرورى اصدار المجلد الثانى من «رأس المال» ، وهذا ليس بالامر السهل . ان مخطوطة المجلد الثانى توجد بـ ٤ او ٥ صيغ ، الاولى منها فقط

منتهية ، وآخرها فى بدايتها وحسب . لا بد من بذل قدر كبير من الجهد ، لان كل كلمة عند رجل مثل ماركس ، بوزن الذهب» .

بالفعل ، اقتضى الحال بذل جهد عملاق حقا لاجل تفهم مخطوطات ماركس المكتوبة بخط غير مفهوم اطلاقا بالنسبة لاي امرئ آخر ، وتحريرها ، وتنظيمها ، واخيرا ، اعدادها للطبع ، مع تزويدها بالتعليقات الضرورية . الا ان انجلس قام عمليا وحده بهذا ، رغم العمل الهائل فى قيادة الحركة العمالية العالمية ، ورغم سوء صحته ، ورغم تفاقم سوء بصره . وفى حياته صدر المجلدان الثانى والثالث من «رأس المال» . وقد اعتبر لينين هذا العمل ، عن حق وصواب ، ماثرة ثورية حقيقية اجترحها انجلس .
ونظرا لذلك ، يكتسب المزيد من

• ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية . المجلد ٣٦ ، ص ٢٤ .

الحدة السؤال المطروح : لماذا قرر انجلس ، وهو الذى كان يعرف جيدا حجم وصعوبة العمل الاساسى الذى يواجهه ، ان ينفصل عن هذا العمل لاجل تحليل كتاب شتاركة وانتقاده ؟

ان تحليل مؤلف انجلس والوضع التاريخى فى ذلك الزمن يتيح استظهار الاسباب الرئيسية الثلاثة . السبب الاول . يمكن اعتبار هذا المؤلف ضربا من انجاز للعمل المشترك الذى قام به ماركس وانجلس لعرض نظراتهما الى المصائر التاريخية للفلسفة الكلاسيكية الالمانية والى دورها بوصفها احد مصادر مذهبهما النظرية . وهذا العمل سبق ان شرعا فيه فى مرحلة تكوين نظريتهما ، اى قبل ٤٠ سنة من كتابة الكراس «لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . فللمرة الاولى عرض ماركس وانجلس فى مؤلفهما المشترك «الايدولوجية الالمانية» الذى كتباه فى اواسط الاربعينيات نظراتهما بصورة نظام نظرى متناسق ، متكامل ، علما بان هذا العرض بنى

على معارضة مذهب فويرباخ والمفاهيم المثالية لبعض الفلاسفة الالمان فى الاربعينيات من القرن التاسع عشر بنظرات ماركس وانجلس . ولكن هذا المؤلف ، باستثناء باب صغير منه ، لم يصدر فى حياة ماركس وانجلس ، بل ان ماركس وانجلس لم ينجزا قسمه النظرى الاساسى المرفق بتحليل انتقادى لنظرات فويرباخ الى المجتمع وبعرض لمفاهيمهما بالذات . وبعد هذا لم يرجع ماركس ولا انجلس الى هذا الموضوع بصورة منتظمة . وقد كتب انجلس : «بصدد موقفنا من هيغل ، اعربنا عن رأينا فى بعض المناسبات ، ولكننا لم نفعل ذلك فى اى مكان بصورة تامة . اما فيما يتعلق بفويرباخ ، الذى هو مع ذلك ، بمعنى ما ، حلقة وسيطة بين فلسفة هيغل ونظريتنا ، فاننا لم نرجع اليه اطلاقا» .

• ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية .
المجلد ٢١ ، ص ٣٧٠ .

وهكذا ، قبل ظهور مؤلف لودفيغ فوريباخ
ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية لم يكن
جمهور القراء يعرف من المصدر الاول ، لا
موقف مؤسسي الماركسية من اسلافهما الفلاسفة ،
ولا تقييمهما لذلك الدور الذي لعبه هؤلاء ،
ولاسيما هيغل وفوريباخ ، في ظهور مذهب
ماركس وانجلز . وقد كان اداء هذه المهمة
من نصيب انجلز ، الذي قال عن حق
وصواب انه يستحيل فهم جوهر الفلسفة الماركسية
بدون معرفة تاريخ ظهورها وصلتها مع النظريات
الفلسفية السابقة .

السبب الثاني . انتعاش الاهتمام بنظريات
الفلاسفة الالمان الافذاذ كانط ، فيخته ،
شيلينغ ، هيغل ، فوريباخ ، هذا الانتعاش
الذي ارتسم بجلاء في الثلث الاخير من
القرن التاسع عشر . وقد كتب انجلز :
«تعرف الفلسفة الكلاسيكية الالمانية في الخارج
نوعا من الانبعاث ، وخاصة في انجلترا
والبلدان السكندنافية . وحتى في ألمانيا ،
على ما يبدو ، اتخذ الجميع يملون الحساء

الاختباري الهزيل الذي يقدم اليهم في الجامعات
باسم الفلسفة .

وبالفعل انبعث في اوروبا في ذلك الزمن
اهتمام كبير بالفلاسفة الالمان العظام الى
حد انه حتى تشكل اتجاه فلسفي مستقل ،
هو الكانطية الجديدة ، واثرها ، الهيغلية
الجديدة ، اللتين اعرب الشعاران «الى الراء
نحو كانط» او «الى الراء نحو هيغل» عن
قانون ايمان ممثليهما ، علما بان مذاهب
كانط وهيغل وغيرهما من الفلاسفة لم تنبعث
وتنتشر بكل كمالها ، بل بشكل محرف كثيرا .
فان تركة كانط النظرية ، مثلا ، قد ظهرت
بحيث ان عناصرها المثالية الذاتية برزت في
المقدمة بينما لف النسبان التام ما احتوته
من عناصر المادية . وفسر تعليم كانط بصدد
حدود المعرفة البشرية بحيث انه تحول الى
انكار لكل امكانية لمعرفة العالم الخارجي ،

• ماركس ، انجلز . منتخبات في ثلاثة مجلدات .
الطبعة العربية . المجلد ٢ ، الجزء ٢ . ص ١٨٥ . دار
التقدم . موسكو .

والخ . . . وقد حاول مقلدو فلسفة هيغل قصارى
 جهدهم لكي ينتزعوا منها روحها الثوري ،
 أي الديالكتيك ، بينما اطروا جوانبها الضعيفة ،
 الرجعية ، ومنها مثلاً ، مذهب الدولة .
 ان اسباب هذا الموقف المتحيز من الفلسفة
 الكلاسيكية الالمانية كانت تمتد جذورها قبل
 كل شيء في المحدودية الطبقيّة الملازمة
 لمواقع «اخلافها» الجدد الايديولوجية . فان
 هؤلاء لم يحاولوا ان يبحثوا تراث الفلاسفة
 الالمان العظام النظري بحثاً عميقاً وان يعرضوا
 بصورة موضوعية جوانب الضعف وجوانب القوة
 في مذاهبهم قدر ما حاولوا ان يستغلوا مكانتهم
 ومبتكراتهم النظرية لاجل تعليل اهداف البرجوازية
 الانانية ، لاجل الدفاع عن مواقف هذه
 الطبقة التي كانت قد فقدت نحو ذلك الزمن
 الدور الثوري الذي كان لها من قبل ، والتي
 نقلت الى عقبة في طريق التقدم الاجتماعي .
 وعلى ممثلي هذه التيارات الفلسفية الجديدة
 يصح كليا قول ماركس : «ومن الآن وصاعداً
 لم يبق المقصود معرفة ما اذا كانت هذه

النظرية او تلك صحيحة ام غير صحيحة ،
 بل صار المقصود معرفة ما اذا كانت نافعة
 للرأسمال ام ضارة ، مناسبة ام غير مناسبة ،
 ما اذا كانت تتفق مع الاعتبارات البوليصة
 ام لا . ان البحث المتزّه يخلو المكان لمعارضة
 الكتبة المأجورين ، والبحوث العلمية غير المنحيزة
 يحل محلها الدفاع المتحيز ، المداهن » .
 ثم ان تفسير نظرات الفلاسفة الالمان ،
 ولاسيما نظرات هيغل وفورباخ تفسيراً مشوهاً
 قد جعل من الضروري ضرورة ملحّة بالنسبة
 لانجلس ان يعرب علناً عن موقف الماركسية
 من الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وبين مكانها
 واهميتها التاريخية بوصفها انطلاقة بارزة للفكر
 البشري ومقدمة نظرية مباشرة لابتداع نظرية
 علمية حقاً للتطور الاجتماعي . وقد قال انجلس :
 «ونظراً لذلك بدا لي اكثر فاكثراً ان الوقت
 قد حان لكي اعرض موقفنا من الفلسفة الهيجلية
 عرضاً موجزاً منهجياً : كيف انطلقنا منها ،

ماركس ، انجلس ، المؤلفات . الطبعة الروسية
 الثانية . المجلد ٢٣ ، ص ١٧

وكيف عدلنا عنها . كذلك حسبنا ان علينا
دين شرف لم نؤفه هو الاعتراف الكامل بالتأثير
الذي اثره فينا فوريباخ . . . أكثر من اى فيلسوف
آخر بعد هيجل .

واخيرا . السبب الاخير من حيث
التسلسل ، ولكن ليس من حيث الهمية .
ضرورة عرض صحيح لجوهر المادية الديالكتيكية
والتاريخية ، بوصفها فلسفة الماركسية . وهذه
الضرورة كانت ترتبط بنمو الحركة العمالية
العالمية وتفاقم التضاد بين الايديولوجية البرجوازية
والايدولوجية البروليتارية .

فبحر اواسط الثمانينيات من القرن التاسع
عشر ، كانت الحركة العمالية قد احرزت
نجاحات كبيرة فى أوروبا وفى اميركا الشمالية .
وبفضل النشاط المتعدد الجوانب الذى بذلته
جمعية الشغيلة العالمية (الاممية الاولى) التى
كان مؤسسها الماركسية وقرب انصارها منظميها
وقادتها ، ظهرت فى عدد كبير من البلدان
« ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
الطبعة العربية . المجلد ٣ : الجزء ٢ ، ص ١٨٥ - ١٨٦ .

احزاب سياسية مستقلة للطبقة العاملة . وهذه
العملية التى كانت دليلا مقنعا على نمو قوى
الحركة العمالية وارتفاع مستواها التنظيمى ،
قد جرت على صلة مباشرة بنضال الاشتراكية
العلمية الناجح ضد مختلف مفاهيم البرجوازية
والبرجوازية الصغيرة التى حاولت ان تؤثر فى
تكون عقيدة البروليتاريا . وعلى العموم ، كان
نضال الماركسية بلا هوادة ضد شتى النظريات
الاشتراكية والاشتراكية المزعومة الضوياوية للاعلمية
شرطا ضروريا لاتساع الحركة الثورية للبروليتاريا
بدأب وثبات ، وكان فى الوقت نفسه قانونا
من قوانين تطور الماركسية بالذات .

وقد وجه ماركس وانجلس فى النصف
الاول من الاربعينيات ، فى مرحلة تكوين
نظريتهما ، انتقادا ماحقا الى نظرات الهيبليين
الشباب ، والمثالية الفلسفية ، والراديكالية
السياسية المزعومة ، التى لم تكن تفعل غير
ان تخدم مآرب الطبقات السائدة . وفى اواخر
الاربعينيات شغل مركز الصدارة من اهتمام
ماركس وانجلس النضال فى ميدان الاقتصاد

السياسي ، وفي المقام الاول النضال ضد البرودونية . وهذا النضال حفز ماركس بقدر كبير على ابتداء مذهبه الاقتصادي . وفي الستينيات والسبعينيات ، انتقل الصراع بين الماركسية والمفاهيم المعادية من ميدان النظرية العامة الى ميدان اقرب الى الحركة العمالية ، هو ميدان النشاط السياسي المباشر . وفي ذلك الوقت كان مفهوم الباكونية الفوضوى ونظرات اللاساليين الانتهازية بمثابة العدو الاساسي للماركسية .

منذ سنة ١٨٧١ ، اى بعد هزيمة كومونة باريس ، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحركة العمالية العالمية تتميز بطابع تطورها «السلمى» نسبيا ، وبانعدام نضالات الكادحين الثورية الحازمة . ومرد ذلك الى ان مهمات التحولات البرجوازية الديمقراطية في بلدان اوروبا الغربية كانت قد تحققت اساسا ، بينما كانت بلدان الشرق لم ترتفع بعد الى مستوى الثورات البرجوازية . وفي ذلك الوقت ، تشكلت جملة كبيرة من الاحزاب البروليتارية

المستقلة ، وكانت الاشتراكية العلمية اساسا نظريا راسخا لنشاطها . وقد قال لينين : « . . . واحرز مذهب ماركس انتصارا كاملا واخذ يمتد ويتسع . وتتطور ببطء ، ولكن بدأب ، عملية انتقاء وحشد قوى البروليتاريا ، واعدادها للمعارك المقبلة » .

ولكن انتصار الماركسية في اشتباك سافر ضد الاعداء في قلب الحركة العمالية لم يعن البتة توقف الصراع بين الفريقين توفقا تاما . فان ممثلي مختلف ضروب الاشتراكية اللاعلمية قد واصلوا النضال ، ولكن لا من مواقع نظرياتهم ، بل في ميدان الماركسية العام ، كمحرفين . فقد حاولوا ان يعيدوا النظر في مبادئ المذهب الماركسي الاساسية ، ان يحرفوها بالتدريج بالظروف التاريخية التي تغيرت ؛ لقد سعوا الى تفرغ الماركسية من جوهرها الثوري ، والاستعاضة عن نظرية تحويل المجتمع تحويلا ثوريا بالوصفات القلبية القائلة

« لينين ، المختارات في ١٠ مجلدات ، الطبعة العربية .

المجلد ٥ ، ص ٢٨ . دار التقدم . موسكو .

بجعل النظام الرأسمالي ليبراليا عن طريق
 الاصلاحات التدريجية . وحاولوا ان يحرفوا
 الماركسية في جميع الاتجاهات ، بما في
 ذلك في ميدان الفلسفة . وعلى غرار البروفسورات
 البرجوازيين ، دعا المحرفون الى تذليل الاحادية
 التي نسبوها الى مادية ماركس ، وإلى الجمع
 بين مادية ماركس وبين الكانطية الجديدة
 وموضوعاتها المثالية . ولطمس كنه الانقلاب
 الثوري الذي قامت به الماركسية في ميدان
 الفلسفة ، محو الحد بين تعاليم ماركس
 وانجلس االفلسفية وبين نظريات اسلافهما وفي
 المقام الاول بينها نظرية هيغل .
 وفي هذه الاحوال كان من المهم بخاصة
 (سواء لاجل توطيد انتصار الماركسية على الصعيد
 النظرى فى الحركة العمالية ام لاجل النضال
 بنجاح ضد التحريفية الناشئة) اعطاء
 عرض واضح ، مبسط ، للفلسفة الماركسية ،
 وتوضيح جوهرها بوصفها كلمة جديدة فى
 تاريخ الفكر البشرى وبوصفها فى الوقت نفسه
 وريثة الاكتشافات البارزة التي حققنها المذاهب

الفلسفية السابقة . وكان من الضروري وضع
 مؤلف يساع الضيقة العاملة ، بالاعتماد
 على تعميم كل تجربة تطور فلسفة الماركسية ،
 فى النضال ضد الايديولوجية البرجوازية والايديولوجية
 التحريفية ، بالمعرفة العلمية لاعم قوانين تحويل
 العالم تحويلا ثوريا .

وجميع هذه الاسباب هي التي اشترطت
 بمجمليها ضرورة وضع مؤلف مثل «لودفيغ
 فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» .
 فمن جهة ، كان من شأنه ان يكون بمثابة
 خلاصة موجزة لما بذله ماركس وانجلس خلال
 سنوات وسنوات من جهد لتطوير فلسفة المادية
 الديالكتيكية والتاريخية ، وان يعكس عزم
 مؤسسى الماركسية القديم على تبيان علاقة
 المفهوم الجديد الفعلية مع الفلسفة الكلاسيكية
 الالمانية ، وبخاصة مع نظريات هيغل
 وفويرباخ . وليس من قبيل الصدفة يلحق
 انجلس بكرامه موضوعات ماركس الاحدى
 عشرة بصدد نظرات فويرباخ ، التي اكتشفها
 انجلس فى مفكرة صديقه الراحل ونعتها

«بالنواة العبقريّة للمفهوم الجديد عن العالم» .
ومن جهة أخرى ، لم يتسم مؤلف انجلز
بأهمية نظرية عرفانية وحسب ، بل كان
كذلك ملاحاً ماضياً في يد البروليتاريا الثورية
واحزابها السياسية ، يساعدها في النضال بلا
هواده ضد الإيديولوجية البرجوازية واتباعها في
صفوف لحركة العمالية بشخص المحرّفين
والانتهازيين .

ان مكان الفلسفة الكلاسيكية الألمانية في
التاريخ ، ولاسيما منها مذهب هيجل بوصفه
ذروتها ، حدده ، برأى انجلز ، دورها
البرز في تطور العلم الفلسفي العالمي ، وكذلك
تأثيرها البالغ في الاحداث اللاحقة في حياة
المجتمع الأوروبي السياسية والفكرية .
وكما احدث الماديون والمنورون الفرنسيون في
القرن الثامن عشر ، بمؤلفاتهم ونشاطهم السياسي ،
انقلاباً في وعي شعبهم وكونوا بالتالي المقدمات
الروحية للثورة البرجوازية ، كذلك ادى انتشار
نظرات الفلاسفة الالمان العظام الى الثورة
الفلسفية الحقيقية واعد الوعي الاجتماعي لادراك
الافكار الثورية السياسية . وفي فرنسا ومانيا
على السواء ، نشبت الثورات ، بادئ بدء ،
في ميدان النظرية ، ثم ، بعد ذلك ،
في ميدان السياسة . ولكن الثورات الفلسفية

«ماركس ، انجلز . منتخبات في ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٦ .

في هذين البلدين المجاورين ، كما لاحظ
انجلس ، قد اختلفت اختلافا تاما من حيث
طابعها .

وقد بشر الماديون والمنورون الفرنسيون على
المكشوف بالثورة البرجوازية العنيدة . ودفاعا
عن مصالح طبقة البرجوازية التي كان يشتد
ساعدها أكثر فاكثراً ، اعلنوا ان النظام الاجتماعي
الاقطاعي القائم غير معقول ، وانه لا يتطابق
مع طبيعة الانسان . ولم يخفوا موقفهم من
السلطات القائمة ، فتعرضوا للملاحقة السافرة .
ان مداخلات ابدولوجيى الثورة العنيدة
والملاحقات الجوية من قبل المدافعين عن
الاموضاع القديمة لم تكن غير علائم النضال
الطبقي في الميدان السياسى والفكرى من مبادئ
الحياة الاجتماعية . كانت مصالح الاوائل
تتطلب تحويل المجتمع القائم تحويلا ثوريا ،
والقضاء على تلك الظروف التي كانت ضرورية
ضرورة مطلقة لوجود الثائرين . ولقد جعل التضاد
بين الفريقين ، بطابعه الجلى والنضارى ،
مبشرى الثورة الفرنسيين «يخاريون على المكشوف

كل العلم الرسمى ، والكنيسة ، كما يخاريون
الدولة احيانا كثيرة ، ومؤلفاتهم تطبع فيما
وراء الحدود ، فى هولندا او فى انجلترا ،
ولا يندر لهم بالذات ان يحرق بهم خطر
السجن فى الباستيل » . وقد تعرض الممثل
البارز للتثوير الفرنسى ، فولتير ، لملاحقات
مدينة وصارمة ، لانه انتقد ، بكل قوة
عقله الباهر وسخريته اللاذعة نمط حياة النبلاء
ورجال الدين وامتيازاتهم المراتبية ، ونادى
باجراء تحويلات ديموقراطية . وقد زج به
مرتين فى سجن الباستيل الملكى ، واضطر
الى العيش خلال سنوات عديدة فى المنفى
خارج حدود فرنسا . كما ان مؤلفه المشهور
«الرسائل الانجليزية» احرق علنا فى موقد .
وكان المصير نفسه من نصيب المؤلفات البارزة
فى ذلك الزمن ، ومنها كتاب المنور البارز
دينى ديدرو «افكار فلسفية» ، ومؤلفات الفلاسفة
الماديين الفرنسيين ، مثل كتاب هلفسبيوس

٥ . مركز ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٧ . دار للنصم . موسكو .

«بصد العقل» ، وكتاب لامترى «بحث في الروح» . ودبدرو نفسه تعرض للاعتقال والسجن لنشره «افكارا خطيرة» ، واضطر هلفيسوس مع لامترى الى طبع مؤلفاتهما في هولندا . ومن هنا بنجم ان طابع التمرد الملازم لمؤلفات المنورين والفلاسفة الماديين الفرنسيين ودورهم في الاعداد الايديولوجي للمعارك الثورية المقبلة جلي جدا . ولكن الوضع يختلف تماما فيما يتعلق بمؤلفات ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . ومن الصعب جدا جدا ، في حال الاطلاع السطحي عليها : اكتشاف الصلة بينها وبين الثورة البرجوازية في اواسط القرن التاسع عشر في المانيا . فهي ، على العموم ، مؤلفات فلسفية ضخمة تتناول بلغة معقدة وجافة مواضيع مجردة بعيدة جدا عن القضايا الحيوية في الحياة السياسية . وحين يتخطى العرض فيها اطار «النظرية الخالصة» ويمس الوقائع السياسية ، كانت استنتاجاتها ومقترحاتها معقدة جدا وحنى محافظة . والمؤلفون شأنهم شأن مؤلفاتهم . انهم ليسوا بثوريين اطلاقا .

فان هؤلاء هم باغليتهم علماء وبروفسورات كان نشاطهم الادبي والتربوي لا يتعرض للملاحظات ، وليس هذا وحسب ، بل كان يلقي ايضا ، وعلى العكس ، التشجيع من جانب الحكومة اذ كانت ترى فيهم ، لا هدمين ، بل مدافعين عن الاوضاع الاجتماعية القائمة والاخلاق والدين . وقد عاش مؤسس الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ايمانويل كانط حياة معتدلة مديدة في مدينة واحدة هي كونينغسبرغ . وكانت حياته مرتبطة بمعظمها بالجامعة المحلية حيث كان في البدء استاذا مساعدا ثم بروفسورا . وكانت افكاره التي مارست تأثيرا قويا جدا في تطور الفكر الفلسفي تطفح بالتناقضات وتفسح المجال لتفسيرها في اتجاهات مضادة . فمن جهة بدأ كانط يبحث المعرفة البشرية ومكانياتها وحدودها الفعلية (وكان لهذا البحث اهمية ايجابية كبيرة جدا) ، ودمر كليا جميع البراهين العقلية على وجود الله ، وعال ضرورة اجراء تحويلات اجتماعية واقتصادية جذبة . ومن جهة اخرى ، اقام

عقبة كأداء في طريق معرفة العالم باعلانه انه يستحيل كليا على الانسان ان يدرك بعقله وحواسه كنه الاشياء الحقيقي ، وافر بضرورة الايمان في الله لاجل التوفيق بين مقتضيات الوعي الاخلاقي ووقائع الشر والعنف التي لا ريب فيها والتي تسود في المجتمع ، وقطع الطريق بالفعل امام اشاعة الديمقراطية حقا في الحياة الاجتماعية باعلانه ان الامكانية الوحيدة لذلك هي الاصلاحات السلمية من جانب الطبقات الحاكمة واعتبر فضالات الشعب الثورية ظاهرة هدامة وسلبية تماما .

ان التناقضات الملازمة لمذهب كانط قد لازمت ايضا في كثير من النواحي ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الالمانية اللاحقين يوهان غوتليب فيخته وفريدريك ولهم يوسف شيلينغ اللذين طرا على نظراتهما الاجتماعية والسياسية ، طوال حياتهما ، تطور جوهرى جدا ، بل تطور حاد جدا عند شيلينغ الذي وقف في اواخر حياته الى جانب الرجعية البروسية في النضال ضد القوى الديمقراطية في المجتمع

الالمانى . ولكن جوانب القوة وجوانب الضعف في هذا الاتجاه الفلسفى تبدت باكبر قدر من السطوع في مذهب غيورغ ولهم هيغل الذى صار قمة الفلسفة المثالية الالمانية . وعليه بالذات ركز انجلس اهتمامه . وقد بين انجلس كيف صارت نظرية هيغل ، من جراء تناقضاتها الداخلية ، عاملا ثوريا في تطور الفلسفة ، ومقدمة روحية للثورة السياسية ، وكيف صارت في الوقت نفسه دعامة فكرية لنشاط الاوساط الحاكمة ، وكيف انها حتى رفعت ، الى حد ما ، الى مصاف الفلسفة الرسمية الملكية البروسية* . وتفهم مجرى محاكمات انجلس اللاحقة ، ينبغي الاطلاع ، وان بأعم نحو ، على الموضوعات الاساسية في فلسفة هيغل .

كان هيغل مثاليا من حيث عقائده الفلسفية اى انه التحق باولئك المفكرين الذين كانوا يعتبرون ان مبدأ ما غير مادى ، روحيا ،

* ماركس ، انجلس . مستحبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٧ .

يقوم في اساس الكون . ودور هذا المبدأ لعبته عنده الفكرة المطلقة التي هي المصدر الاول لكل موجود : والتي تنطوي على كل غنى تجليات العالم المادى والروحى ، ونحدد بضرورة حديدية منطق تطور المجتمع بمجمله ونشاط جميع اعضائه . وهذا الفهم لجوهر الفكرة المطلقة يبين ان نظرات هيغل كانت ضربا من المثالية الموضوعية التي كان مشاؤها يعترفون بوجود الاصل الروحى خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه . ان موقفهم يختلف عن مفاهيم المثاليين الذاتيين الذين يرون انه يستحيل وجود اى واقع كان خارج الوعى وبصورة مستقلة عنه . ولقد كان مذهب هيغل ذروة تطور الفلسفة المثالية الموضوعية ، سواء من حيث سعة احاطتها بالقضايا المطروحة ام من حيث درجة بحث وحل هذه القضايا .

ان العالم المحيط بنا : — الطبيعى والاجتماعى ، — هو ، برأى هيغل ، نتيجة لكشف الفكرة المطلقة لذاتها . وهذه الفكرة هي عبارة عن «شكل خلاق لامتناه ينطوى

على كل مضمون بكل كماله ويؤلف في الوقت نفسه مصدره» . ومن الممكن تفسير الفكرة المطلقة ، بمعنى معين : بانها التفكير بمجمله ، العقل . وليس هذا بتفكير او عقل انسان بعينه ولا حتى الوعى الاجتماعى ، بل هو العقل العام ، مبدأ عاقل موضوعى ما ، يؤلف جوهر كل عملية التطور العالمى ، ولهذا يمكن القول ان العالم عاقل لانه ، فى مجمل تجلياته ، لا يعدو ان يكون درجات متتابعة لتطور العقل ، وولادة التفكير الذى يتطور بموجب قوانينه الداخلية . ومن هنا تنجم موضوعية التطابق المبدئى بين الوجود والتفكير لان الوجود ، برأى هيغل ، ليس الا مرحلة من مراحل تطور الروح الى الامام . ليس التفكير هو انعكاس للوجود المادى ، بل الوجود ، الواقع الطبيعى والاجتماعى يقوم ، بالعكس ، بدور شىء ما ثانوى حيال التفكير المعلوم الصفات الشخصية ، التجريدى ،

Hegel G.W.F. Sämtliche Werke, Stuttgart, 1929, *
Bd. 8, s. 354.

الذى اسمى «الفكرة المطلقة» .

ان المنطق وفلسفة الطبيعة وفلسفة الروح
هى الاقسام البنيوية الاساسية فى فلسفة هيجل ،
وهى التى اضفت الاسماء على الاقسام الثلاثة
من مؤلفه الرئيسى «موسوعة العلوم الفلسفية» .
وقد اجرى هيجل هذا التقسيم وفقا للمراحل
المتابعة الثلاث لكشف الفكرة المطلقة لذاتها .
المرحلة الاولى هى المنطق ، «مملكة الفكر
الخالص» او ، كما يقول هيجل ، صورة الله
فى وجوده السرمدى . وهنا لا وجود بعد لا
للطبيعة ولا للانسان ، بل يبدو كشف الفكرة
المطلقة بمثابة حركة متصاعدة من التعاريف
العامة المجردة («الوجود») الى تعاريف تحفل
بمضمون ملموس .

وحين نتجاوز الفكرة المطلقة جميع درجات
التطور المنطقى ، تتحول الى ضدها — الطبيعة .
ان هذه الموضوعات هى من اشد الجوانب غموضا
فى مفهوم هيجل ، لان صاحبها لا يستطيع ،
بالطبع ، ان يفسر الية هذا التحول الملموسة .
ونظرا لذلك لا يفعل غير ان يلاحظ فى

الفترة الاخيرة من «المنطق» ان الفكرة «نعتزم
فى حقيقتها المطلقة ان تنتج من نفسها عنصر
خصوصيتها او عنصر تعريفها الاول ووجودها
الآخر ، الفكرة المباشرة ، بوصفها انعكاسها ، نعتزم
ان تطلق نفسها بحرية من نفسها بالذات
بصفة الطبيعة» . وعليه تكون الطبيعة ،
فى تصور هيجل ، وجودا آخر ، حالة اغتراب
الفكرة المطلقة . وبما ان الطبيعة مشتقة ،
ثانوية من حيث جوهرها ، فانها لا تتطور
بمعنى الكلمة الاصلى ، بل تعرض تنوعها
فى المكان وحسب .

ان الانتقال الى الوجود الآخر ضرورى
للفكرة المطلقة لكى تكشف مضمونها فى
هذا «الآخر» ، فى الطبيعة ، وتصعد على
درجاتها الى الروح وتعود بالتالى على مستوى
جديد الى وحدة الاولية مع نفسها بالذات .
وفى هذه المرحلة الختامية من تكشفها تبرز
الفكرة المطلقة بوصفها مضمون العملية التاريخية

Hegel G.W.F. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1929, *
Bd. 8, s. 452.

الداخلي وجوهرها . ففي سياق تاريخ المجتمع على وجه الضبط ، تعرف الفكرة المطلقة ذاتها نتيجة لتطور التفكير البشرى ، وينتجق بالتالى ، اخيرا ، الهدف النهائى من انتشارها الذاتى .

ومن هنا يظهر ان المخطط الهيغلى للعملية العالمية هو عبارة عن تصور غريب جدا ، خيالى لتطور الواقع الموضوعى ، الطبيعى والاجتماعى على السواء . ولو ان فلسفة هيغل انحصرت فى هذا المخطط ، لما استطاعت يوما ان تضطلع فى تاريخ تطور الفكر البشرى بذلك الدور البارز الذى يعود اليها عن حق و صواب ، ولما استطاعت ان تصبح المقدمة الروحية للثورة البرجوازية فى المانيا . ولكن فلسفة هيغل ليست المثالية وحسب ، بل المثالية الديالكتيكية . فقد صاغ هيغل على اساس مثالى الموضوعات الاساسية فى الطريقة الديالكتيكية لمعرفة العالم ، وبذلك ارسى الاساس الذى استطاع ماركس وانجلس ان يبنيا عليه الديالكتيك المادى العلمى حقا .

ان الديالكتيك هو ، بأعم صوره ، عبارة عن مذهب فلسفى عن اهم الصلات المشروعة وعن نشوء وتطور الوجود والمعرفة . وقد مر الديالكتيك فى طريق عسير ومديد جدا من التطور التاريخى — من افكار المفكرين القدماء الديالكتيكية العرضية ، التى كانت تتخذ بالاحرى شكل تخمينات عبقرية ، الى المذهب المادى الديالكتيكى الماركسى ، الذى هو اداة جبارة لمعرفة العالم معرفة خلاقة ولتحويله تحويلا ثوريا . وقد كان الديالكتيك المثالى الهيغلى صورة بالغة الشأن فى هذا السيل التاريخى . فقد استطاع هيغل ، بصورة اكمل الى ما لا قياس له من اى آخر قبله ، ان يفهم جوهر الطريقة الديالكتيكية لمعرفة الواقع ويعرب عنه . وبفضل هيغل على وجه الضبط ، صيغ الاسلوب الديالكتيكى للتفكير وفهم كل العالم الطبيعى والتاريخى والفكرى بوصفه عالما يتحرك الى ما لا نهاية له : ويتغير ، ويتواجد فى عملية دائمة من النشوء والزوال . والآن ، لا تواجه

الفلسفة وحدها ، بل تواجه جميع العلوم
ايضا ، مطلب اكتشاف قوانين حركة عملية
التحويل السرمدية هذه في كل ميدان بمفرده .
وفي هذا يتلخص التراث الذي تركته الفلسفة
الهيغلية لاختلافها .

لقد صاغ هيغل قوانين الديالكتيك الاساسية
وبنى نظاما متناسقا ، متكاملا نسبيا من
مقولات ديالكتيكية . صحيح ان هذا النظام
قد عكس ، كما يقول هيغل ، العمليات
الديالكتيكية الجارية في ميدان التفكير . ذلك
ان هذا الميدان بالذات هو الذي هيمن في
مفهومه المثالي على القدرة على التطور الفعلي .
اما العالم المادى ، الطبيعى ، فقد حرم
منها . ولهذا السبب بالذات ، برد التحليل
الديالكتيكي للمقولات الفلسفية ، ومنها الوجود
والجوهر والصفة والعدد والضرورة ، والخ . فى
تلك الابواب من مؤلفات هيغل التى تبحث
حركة الفكرة المطلقة فى «مملكة الفكر

هـ ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية
الثانية . المجلد ٢٠ ، ص ٢٢ .

الخالص» . ان هذه المقولات تبرز بمثابة
درجات تمر بها الفكرة فى الكشف عن ذاتها .
لقد رفع هيغل الفكر فوق الطبيعة ، وطوى
امامه ضرورة تمثيل العالم الطبيعى الذى
يقابله ، الامر الذى يتطلب وقف هذا العالم
وحرمانه من التطور الفعلى ، وشبه الفكر
بالعنكبوت الذى يلف الذبابة بشبكه بكل
قوة قبل ان يمتص منها دمها . ان الفلسفة
المثالية الهيغلية تحرم الطبيعة من وجودها المستقل
وبذلك نميتها : «يجب علينا ان نعتبر الطبيعة
نظاما من درجات تنبع كل منها بالضرورة
من درجة اخرى وتكون اقرب حقيقة الى
تلك التى نبعث منها ، ولكنه لا توجد هنا
عملية توليد طبيعية ، فيزيائية ، بل مجرد
ولادة فى حضانة الفكرة الداخلية التى تشكل
اساس الطبيعة» .

Hegel G.W.F. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1929, *
Bd. 9, s. 58.

ومن هنا بنجم ان هيغل قد كشف قوانين الديالكتيك ومفولاته في ميدان التفكير النظرى ، لا على مثال اشياء ومواد العالم المادى ذاتها ، بل على مثال مفاهيمها . ولكن هذا تحقق بدرجة من العمق بحيث ان وراء حركة المفاهيم تبدى على الدوام حركة اساسها الفعلى — العالم المادى . وقد اشار لينين الى اهمية ديالكتيك هيغل الموضوعية ، وكتب على هامش ملخص مؤلف هيغل «علم المنطق» : «خمن هيغل بصورة عبقرية ديالكتيك الاشياء (الظواهر ، العالم الطبيعية) في ديالكتيك المفاهيم» . في هذه الملاحظة ، نجد المفتاح لاعطاء تقييم صحيح عن الدور الذى اضطلع به المفكر الالماني العظيم في تطور طريقة التفكير الديالكتيكية . فمن جهة ، بنعت لينين المفهوم الهيجلى عن الديالكتيك «بالتخمين» ، لانه مشوه منذ بادئ بدء باساسه الفلسفى المثالى . ولكنه من جهة اخرى تخمين عبقرى

« لينين . المؤلفات . الطبعة الخامسة ، المجلد ٢٩ ،

ص ١٧٨ .

عكس الطابع الكلى لتطور ظاهرات وعمليات الواقع الموضوعى وللصلة الديالكتيكية المتبادلة بينها .

ان ما تميزت به الفلسفة الديالكتيكية الهيجلية من اهمية بالغة وطابع ثورى قد تلخص في كونها ، كما اوضح انجلس ، قد «وضعت حدا نهائيا لكل تصور عن الطابع النهائى لنتائج فكر الانسان وفعله» . وقطع هيغل بحزم وعزم كل صلة بالتقليد السائد بين اغلبية الفلاسفة وعلماء الطبيعة ، وهو ان يروا في المعرفة عملية التوصل بتتابع وثبات الى تفهم مجمل معين (نهائى) مما يسمى «الحقائق المطلقة» . وحسب هذا التقليد ، تبقى هذه الحقائق كما هى في جميع الظروف الطبيعية او التاريخية ، ويجب ان تعطى الناس بمجملها المعرفة النهائية ، الكاملة عن العالم .

خلافا لوجهة النظر هذه ، اعتبر هيغل

« ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات .

المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٩ .

الحدود بين الحقيقة والضلال نسبية ومنحركة جدا ، واعتبر تفهم الواقع المحيط عملية معتدة ومديدة ، لا نهاية لها حقا ، ليس لها طريق رئيسية يسير عليها تطور المعرفة العلمية وحسب ، بل لها ايضا طرق جانبية وحتى تشعبات مأزقية . وكان تصور لانهاية حركة الفكر البشرى يناقض قطعاً ادعاءات الكثير من المفاهيم الفلسفية ومفاهيم العلوم الطبيعية في امتلاك المعرفة المطلقة عن العالم ويوجه العلماء الى البحث الخلاق المتواصل .

وقد قال انجلس : «فالحقيقة التي كان ينبغي ان تعرفها الفلسفة ، لم تبد لهيغل بشكل مجموعة من العقائد الجامدة الجاهزة ، التي لبس على المرء بعد اكتشافها الا ان يحفظها عن ظهر قلب ، فالحقيقة قد انحصرت مذ ذاك في مجرى المعرفة نفسه ، في التطور التاريخي الطويل للعلم الذي يصعد من درجات دنيا الى درجات اعلى فأعلى في سلم المعرفة ولكن دون ان يبلغ ابدا نقطة لا يستطيع ان يستمر سيره منها بعد ايجاد ما يسمى

الحقيقة المطلقة ، ولم يعد له بناثا ان يبقى حيث هو ، مكتوف الايدي ، يتأمل باعجاب الحقيقة المطلقة التي حصل عليها . هكذا يجرى سواء في ميدان المعرفة الفلسفية ام في ميدان اي معرفة كانت وكذلك في ميدان النشاط العملي» .

وقد دل هيغل على السبيل الى استيضاح القوانين الديالكتيكية لا في حركة المعرفة البشرية وحسب ، بل ايضا في تطور المجتمع . ان دراسة تاريخ البشرية من مواقع ديالكتيكية منسجمة تؤدي حتما الى القول بالطابع النسبي لدرجة التطور الاجتماعي المبلوغة بالمقارنة مع لانهاية العملية التاريخية . ومن هذه المواقع ، يبدو المجتمع القائم ، كل مجتمع ، من جهة ، نهاية للتطور التاريخي السابق ، ومن جهة اخرى ، صانعا للمقدمات من اجل الانتقال الى شكل اجتماعي اعلى . وفي هذه الطريقة بالذات لتقسيم الواقع الاجتماعي ،

• ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٩ .

تجلى الطابع الثوري للديالكتيك الهيجلي ،
وتجلى رغم الشكل الغامض جدا والصوفي
تقريبا في بعض الاحيان ، تعرض المادة .
ونظرا لذلك ، يحذر انجلس من التقييم
الاحادي الجانب للموضوعات المعروفة جيدا
في فلسفة هيجل ، ويدعم فكرته بمثال قول
مأثور واسع الاستعمال في ذلك الزمن من
مقدمة مؤلف هيجل «فلسفة الحق» جاء فيه :
«كل ما هو واقع هو معقول ، وكل ما هو
معقول هو واقع» .

من النظرة الاولى يبدو هذا القول مجرد
تبرير للاوضاع الاجتماعية القائمة ، مجرد
توضيح فلسفي للمؤسسات الاجتماعية ايا كانت ،
مهما كانت رجعية . هكذا بالضبط كان
يظن مشلو الاوساط المحافظة ، الملكية
الاقطاعية ، والليبراليون البرجوازيون القصص والنظر
الذين كانوا يرون في هيجل مدافعا بوجه الحصر
عن الملكية البيروقراطية البوليسية القائمة .

Hegel G.W.F. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1928, *
Bd. 7, s. 33.

وعلى نقبضهم ، عرض انجلس تفسيراً مغايراً
لهذا التعبير يركز على نظرات هيجل بالذات .
فان انجلس يلفت النظر الى الفرق الوارد
في فلسفة هيجل بين الوجود والواقع . فليست
جميع الظواهر الاجتماعية الموحدة ، برأى
هيجل ، واقعية كذلك . الواقع بنظر هيجل
اعلى من الوجود ، وهو لا يلزم سوى الظواهر
التي وجودها ضروري موضوعيا . مثلاً ، ضرورة
ظهور هذا الشكل او ذاك من هيكل الدولة
بمسئلهما مجمل معين من الظروف التاريخية .
واذا كانت الدولة تتطابق مع هذه الظروف ،
فانها واقعية ، فعلية ، ومعقولة في آخر
المطاف . ولكن الظروف التاريخية تتغير مع
مر الزمن ، وعاجلاً ام آجلاً تحل لحظة
تكف فيه الدولة المعنية عن التطابق مع المرحلة
الجديدة من التطور الاجتماعي . وبديهي ان
شكل الدولة القديم قد لا يزول في الحال ،
ولكن بما انه لم تبقى ثمة ضرورة تاريخية
لوجوده ، فلا يمكن القول عنه انه واقعي
وانه معقول . ومهما استمر وجوده ، فان

هلاكه محتم : مثلما هو محتم حلول شكل جديد لهيكل الدولة محله .

ان النظرة الى الواقع التاريخي بوصفه عملية ولادة ونمو وتطور واضمحلال مختلف الاشكال الاجتماعية تناسب مع روح ديبالكينيك هيغل . «فان اى شىء ، كان واقعا فيما مضى» ، حسب ديبالكينيك هيغل ، «يصبح فى مجرى التطور غير واقع ، ويفقد ضرورته وحقه فى الوجود ، وصفته المعقولة . ومحل الواقع المحتضر يحل واقع جديد صالح للحياة — يحل محله سلميا ، اذ كان القديم عاقلا بحيث يتقبل مصيره دون مقاومة ، وبالعنف اذا عارض القديم هذه الضرورة» .

وهكذا تتحول الموضوعة القائلة «كل ما هو واقع هو معقول ، وكل ما هو معقول هو واقع» من اداة موثوقة للدفاع عن الاوضاع الاجتماعية القائمة الى نقبض مباشر ، الى اساس لضرورة الاستعاضة عنها بنظام اجتماعي

• ماركس ، انجس . المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، المجلد ٢١ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

جديد . وبما ان كل واقع فى ميدان التاريخ البشرى يصبح مع مر الزمن غير معقول ، ويفقد حقه فى الوجود ، فان هذا يعنى انه لا وجود لاي شىء منته ، جامد ، مطلق ، يعنى انه لا يمكن لاي مجتمع ، لاي دولة ، اعتبار نفسها ذروة التطور التاريخي . ومن جهة اخرى ، كل ما هو معقول فى رؤوس الناس يجب ان يصبح مع مر الزمن واقعا مهما كان مناقضا للتصورات القائمة . وتحويرا لقول لبطل غوته ، ميفيستوفيلس ، كتب انجس : «الموضوعة التى تقول بان كل ما هو واقع هو معقول ، تتحول ، وفقا لجميع قواعد التفكير الهيجلية ، الى موضوعة اخرى ، هى ان كل ما هو قائم يستحق الزوال» .

لقد وصف انجس الفلسفة الديالكتيكية وصفا مسهبا ونوه بدور هيغل البارز فى بنائها ؛ ولكن انجس اشار فى الوقت نفسه الى ان الموضوعة

• ماركس ، انجس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات ، المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٨٩ .

التي صاغها اعلاه بصدد الجوهر الثوري حقا
للتفكير الديالكتيكي لا ترد في اي من مؤلفات
هيجل . فلماذا لم يقترب هيجل نفسه من
تلك الاستنتاجات الجذرية التي تنبع بصورة
محتمة من تطبيق الطريقة الديالكتيكية بدأب
وانسجام ؟ ان انجلس يرى سبب هذا في
كون الطريقة الديالكتيكية في مذهب هيجل
لا تضطلع في نظامه الفلسفي بالدور الحاسم ،
بل بدور ثانوي .

ذلك ان هيجل ، حين انتقد نظرات
سابقه ، لم يستطع ان يتغلب كليا على
الفهم الخاطئ السائد بينهم لمكان الفلسفة
ودورها في حياة المجتمع . ومن حيث الجوهر ،
فعل ما فعلوه ؛ فقد حاول ان يصوغ منهجا
نظريا يشمل العالم كله ويعطي الانسانية المعرفة
المطلقة عن هذا العالم بصورة مجمل معين
من موضوعات معطاة مرة واحدة والى الابد .
ذلك ان منهج فلسفة هيجل قد بنى بحيث
يعيد نظريا بناء عملية التطور العالمي كله ،
بحيث يشملها ، لا في قوانينها الاساسية

وحسب ، بل ايضا في اجزائها . وكانت
تلك محاولة جلية البطلان لحشد كل الواقع
الموضوعي المتنوع وعملية العرفان اللامتناهية في
اطر اصطناعية صلبة لانشاء فلسفي . وهذه
المحاولة ادت الى ظهور تناقضات عديدة
في قلب المذهب الهيجلي .

ومن هذه التناقضات ، - الامر الذي سبق
ان تحدثنا عنه ، - كان انكار هيجل لقدرة
الطبيعة على التطور . فبما ان الطبيعة هي
نتج الفكرة المطلقة ، فقد كان لا بد لها
من ان تنشأ كلها على الفور . وعلى الفور كان
ينبغي ان يظهر كل الواقع الطبيعي المتنوع
الذي لا يفعل فيما بعد غير ان ينتشر في
المكان ، ولكن لا في الزمان ، الامر الذي
هو شرط ضروري لتطور الفعلي . ان هذه
الموضوعة من الفلسفة الهيجلية ، كما بين
انجلس ، تشير قدرا اكبر من الحيرة لان
العلوم الطبيعية كانت نحو ذلك الزمن قد
كدست مادة كبيرة عن عمليات التطور في
الطبيعة الحية وغير الحية ولان بعض العلماء

البارزين قد اعربوا عن تحمينات عبقرية سبقت
نظرية التطور اللاحقة . ان هذه الموضوعة قد
دخلت في تناقض صارخ مع طريقة هيغل
نفسه الديالكتيكية ايضا . «غير ان المنهج
هكذا امر ، وارضاء للمنهج كان على الطريقة
ان نخون نفسها» .

والمفهوم الهيجلي عن العملية التاريخية التي
تنقسم الى ثلاث مراحل هو ايضا متناقض
جدا . فان المرحلة الاولى (ويربطها هيغل
بتاريخ شعوب الشرق القديم) تتميز بكون الانسان
لا يعي بعد جوهره الحر ، ولذا كان الجميع
هنا عبيدا . وفي المرحلة الثانية من التاريخ
العالمي (العالم القديم) ، اخذ بعض الناس
يعون ان الحرية انما هي جوهر الانسان ،
ولكن الاغلبية لم ترتفع بعد الى هذا المستوى
من تطور الوعي وظلت في وضع العبيد .
اما المرحلة الثالثة ، فانها تتصف ببلوغ الحرية
العامة لان جميع الناس يعون جوهرهم الحر

«ماركس وانجلز . منتخبات في ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٢ .

الحقيقي . ويجري هذا في العالم المسيحي ؛
والمانيا هي ذروة عملية الوعي الذاتي هذه .
وهكذا اعلن هيغل ان الملكية البروسية المتخلفة
اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، والمصلحة قليلا
جدا فقط بدستور ديموقراطي معتدل هي صورة
مجسدة عن الروح المطلق وذروة التطور التاريخي .

ثم ان وصف هيغل لفلسفته ليس اقل
تناقضا . ففي البدء يجعل هيغل من الحقيقة
السرمدية وعملية تطور الوعي البشري اللامتناهية
امرا واحدا . ولكن هيغل يرى نفسه مضطرا
الى ان يضع حدا لهذه العملية لان منهجه
الفلسفي ، مثل اي منهج آخر ، كان يتطلب
نهاية . والسبيل الى هذه النهاية ، كان
واحدا : الفكرة المطلقة ، التي تتطور عملية
تطورها وانتشارها على تطور البشرية التاريخي ،
كان لا بد لها ان تدرك نفسها بالذات .
ويعلن هيغل فلسفته تلك النقطة التي يجري
فيها ادراك الفكرة المطلقة لنفسها بنفسها ،
وبالتالي لا تنتهي عملية المعرفة وحسب ،
بل ينتهي ايضا تاريخ البشرية . ويستخلص

انجلس قائلا : ولكن هذا يعنى ان كل ما هو عقائدى جامد فى منهج هيغل يعلن الحقيقة المطلقة ، وهذا ما يناقض طريقته الديالكتيكية التى تنسف كل ما هو عقائدى جامد . وهذا يعنى خنق الجانب الثورى بضغط الجانب المحافظ المضخم الى ما لا نهاية له ، لا فى ميدان المعرفة الفلسفية وحسب ، بل ايضا فى مجال النشاط التاريخى * .

ان التناقضات الملازمة لفلسفة هيغل لم تنبع من خصائصها الداخلية وحسب . ففى كثير من الجوانب نبعت كذلك من الظروف الاجتماعية الخاصة للواقع الالمانى فى ذلك الزمن . كانت الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وثيقة الارتباط بمصالح البرجوازية ، واشتركت فى تكوين مفاهيمها ومثلها الاجتماعية والسياسية . اما تحول البرجوازية الالمانية الى طبقة سائدة ، فقد رافقته مضاعفات وتعقيدات كبيرة وجرى ببطء بالغ ، مثله فى ذلك مثل قيام وتوطد

* ماركس ، انجلس ، منتخبات فى ثلاثة مجلدات ، المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩١ .

اسلوب الانتاج الرأسمالى بوصفه الاسلوب الحاسم فى حياة المانيا الاقتصادية . ثم ان البرجوازية الالمانية ، المصابة بالثشت ، الضعيفة اقتصاديا ، كانت ايضا ضعيفة ومتردة سياسيا . وخلافا للبرجوازية الفرنسية من قبل الثورة ، لم تطمح الى الاستيلاء على السلطة بالعنف ، بل سعت الى توفير ظروف وشروط افضل لاجل تطور الصناعة والتجارة عن طريق الاتفاق مع القوى الاقطاعية السائدة ، واقدمت على المساومة مع الطبقة البائدة بقدر من الرغبة اكبر بكثير مما اقدمت على التحالف مع الشعب الثورى .

ولكن الجانب المحافظ من فلسفة هيغل ، حتى رغم ان هيغل نفسه مال اليه على الاغلب ، لم يستطع ان يخلق كليا جانبها الثورى — الديالكتيك . وبديهي ان الانشاءات النظرية الثقيلة فى منهج هيغل الفلسفى قد صعبت فهم جوهر طريقته الديالكتيكية الثورى . « غير ان هذه الانشاءات لا تقوم الا بدهر اطرار ، صفالات للصرح الذى يئنه . ومن لا يتوقف هنا طويلا بل يتوغل فى اعماق الصرح الجليل ،

يجد فيه كنوزا لا عد لها ، ولا تزال تحتفظ بكل قيمتها حتى اباننا هذه » . ان المفهوم العام عن العملية التاريخية بوصفها عملية مشروعة ، محتمة ، ضرورية ، والافكار الديالكتيكية العبقريّة التي صاغها هيغل فيما يتعلق بجميع مبادئ المعرفة ، — كل هذا جعل مذهبه يسترعى لُزمن طويل ، لا انتباه الفلاسفة وحسب ، بل ايضا وعلى العموم انتباه جميع الناس المتعلمين في ذلك الزمن . وعلى الدوام كان تأثير نظرات هيغل في تطور الفلسفة وكل الميدان الروحي في المجتمع يشتد ، لا في السنوات الاخيرة من حياة هذا المفكر ، بل ايضا بعد وفاته في سنة ١٨٣١ .

وتبعاً لجانبى مذهب هيغل ، انقسم اتباعه الى معسكرين مختلفين ، سرعان جدا ما بلغت العلاقات بينهما حد العداوة السافرة . وقد احتدم الصراع بين ممثلى هذين المعسكرين

ماركس وانجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٢ .

في التربة المثالية المشتركة ، ولكن الموقف المضاد من تركة هيغل النظرية ، حين كان يشغل المرتبة الاولى اما منهجه الفلسفى ، واما الطريقة الديالكتيكية ، قد جعل من المستحيل التصالح والتوافق بينهما . ناهيك بان ممثلى الجناح اليسارى من المدرسة الهيغلية ، من يسمون بالهيغليين الشباب (واليهم انتمى بعض الوقت الشابان ماركس وانجلس) اخذوا يولون المسائل الاجتماعية والسياسية الحادة قدرا اكبر فأكبر من الانتباه ، شاغلين عند حلها مواقف اكثر فأكثر راديكالية .

كذلك نجلت راديكاليتهم في الموقف من الدين ، في حل مسائل نشوئه ودوره في الحياة الاجتماعية . والى النضال ضد الدين على وجه الضبط ، الذى كان بحكم ظروف ذلك الزمن نضالا سياسيا ايضا ، وجه الهيغليين الشباب قواهم الاساسية . وبما ان العقيدة الدينية هي اقرب قريب الى المثالية الفلسفية ، فان النضال الدائب ضد العقيدة الدينية كان لا بد له من ان يدفع المشتركين فيه الى

مواقع قريبة من المادية ويطرح امامهم ضرورة
اعادة النظر بعين نقادة الى آرائهم المثالية .
وهذا بالذات ما حدث بالفعل في عدد
من الاحوال .

ولقد كان لودفيغ فوريباخ الاول بين الذين
تخلوا عن معتقداتهم المثالية السابقة وانتقدوا
انتقادا قاطعا المثالية الفلسفية باحدث اشكالها
— في شخص فلسفة هيغل . كان فوريباخ
بادئ بدء من ابرع تلامذة هيغل ، ولكنه
تحول الى مناضل منسجم ضد «سحر» المذهب
الهيغلي الذي سمر العالم الفلسفي وجمده بسلاسله .
وقد اشار فوريباخ في عدد من مؤلفاته الى
خطأ المبادئ الانطلاقية الاسامية للفلسفة
المثالية وعلل ضرورة فهم الواقع فهما ماديا .
وبين مؤلفاته يبرز انجلس كتاب «جوهر المسيحية»
الذي صدر في سنة ١٨٤١ والذي حظي
بشهرة خارقة الانتساع وكان له تأثير جوهري
في تطور الفلسفة وكل الحياة الروحية في المانيا .
وقد كتب انجلس : «كان ينبغي ان يجتاز
الناس الفعل الشافي لهذا الكتاب لكي يكونوا

فكرة عن ذلك . فالحماسة كانت عامة : جميعنا
غدونا ، بلحظة ، من انصار فوريباخ » .
وهكذا كانت فلسفة فوريباخ المادية شكلا
من اشكال قطع الصلة مع الفلسفة المثالية
الهيغلية ، وكانت في الوقت نفسه ، كما
قال انجلس ، الحلقة الوسيطة بين فلسفة
هيغل والفلسفة الماركسية . ان التضاد بين
نظرات فوريباخ ونظرات هيغل انما هو في
المقام الاول التضاد بين المادية والمثالية .
ولهذا ، قبل الشروع في تحليل مفاهيم فوريباخ
الفلسفية تحليلا ملموسا ، تناول انجلس التضاد
بين المادية والمثالية على العموم ، وبحث
في بداية الفصل الثاني من مؤلفه مسألة لها
اهمية مبدئية لاجل فهم الموقف الماركسي
من تاريخ الفلسفة العالمية .

٥ ماركس وانجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٥ .

المسألة الأساسية في الفلسفة نقد اللاعرفانية والمادية الميتافيزيقية

نعكف الفلسفة ، مثل اى علم آخر ، على حل كثرة بالغة من المسائل المتعلقة بمعرفة الواقع الطبيعي والاجتماعي . ولكن بين هذه المسائل ، كما يرى انجلس ، تبرز من حيث الاهمية مسألة العلاقة بين الفكر والوجود ، بين الوعي والمادة . وهذه المسألة يسميها المسألة الأساسية في الفلسفة ، لان على حلها يتوقف ، بهذا النحو او ذاك ، حل جميع المسائل الفلسفية الاخرى . فان الفيلسوف ، اذ يشغل موقفا معينا في حل هذه المسألة ، انما يحدد بالتالى موقفه المبدئي من العالم بمجمله ، من مسألة إمكانية وسبل معرفة الواقع ، وفهمه لجوهر التفكير وقوانينه . وعلى حل هذه المسألة بهذا النحو او ذاك يتوقف في آخر المطاف الموقف من تقييم العملية التاريخية وظواهرها

المختلفة . وبوصف المسألة الأساسية في الفلسفة يبدأ الفصل الثاني من كتاب انجلس : «ان المسألة الأساسية الكبرى في كل فلسفة ، ولاسيما في الفلسفة الحديثة انما هي العلاقة بين الفكر والوجود . . . وقد انقسم الفلاسفة الى معسكرين كبيرين ، وفقا للجواب الذى يجيبون به عن هذه المسألة . فاولئك الذين اكدوا ان الروح وجدت قبل الطبيعة ، والذين اعترفوا بالتالى ، في آخر الامر ، بهذه الصورة او تلك ، بخلق العالم . . . انقوا معسكر المثالية . اما اولئك الذين اعتبروا الطبيعة هي الاصل ، فقد انتموا الى مختلف مدارس المادية» .

من السهل ان نميز في الواقع المحيط بنا نوعين مختلفين من الظاهرات : مادية وروحية (مثالية) . ان المادية ، كما يدل اسمها نفسه ، تنطلق من الاعتراف باسبقية (باولوية) المادة ، باسبقية الوجود ، وثانوية

ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

الوعى ، ثانوية التفكير . ولقد سبق ان اكد
الماديون العفويون فى اليونان القديمة ان الانعكاس
(الوعى) مشتق من الموضوع المعكوس (العالم
المادى) ، وانه لا يمكن له ان يوجد بدون .
وجميع ممثلى المادية اللاحقين ، رغم الكثير
من الفوارق الجوهرية جدا احيانا ، قد انفقوا
فى حل واحد للمسألة الاساسية فى الفلسفة .
وعلى المبادئ ذاتها تقوم الفلسفة الماركسية-
اللينينية للمادية الديالكتيكية ، موضحة ،
اولا ، ان الوعى هو نتاج عملية
تاريخية مديدة لتطور المادة . ثانيا ، ان
الوعى هو نتاج التطور الاجتماعى . ثالثا ،
ان وعى كل انسان بمفرده يتشكل بنتيجة
عملية تطور معقدة وطويلة جدا ، حين يبلغ
دماغه درجة معينة من النضج ، وحين يكس ،
اذ يتربى فى جماعة ، تجربة مهمة اجتماعية
بحجم معين ، ويمتلك النطق البين . واخيرا ،
تعتبر الفلسفة الماركسية ان الوعى ليس انعكاسا
هامدا ، بل انعكاس نشيط ، فعال ،
لاشياء وظاهرات الواقع المحيط ، وان الوعى

شرط ضرورى لكى يمارس الانسان تأثيرا معاكسا
فى العالم الخارجى ، لكى يغير الواقع الطبيعى
والاجتماعى . وهكذا يقوم بين المادة والوعى
تأثير معقد ، ديالكتيكي .
ان خط المادية يعارض خط المثالية
التي تعلن ان الاولى ، الاسبق ، شئ غير
مادى ، روحى ، فكرى ، مثالى . ان
هذا الحل للمسألة الاساسية فى الفلسفة يجمع
شئى وجهات النظر التي تعتبر ان الاساس
الاول للعالم هو الفكرة المطلقة او الارادة
العالمية ، او الوعى الذاتى او مجمل
الاحساسات . والى الفلسفة المثالية تنضم
اساسا ، كما سبق ان قلنا ، شئى ضروب
التعاليم الدينية ، التي تعتبر هي ايضا ان
العالم المادى المنظور مشتق من مبدأ غير
مادى ، من العالم الآخر ، من عالم
الغيب ، سواء كان المقصود هنا ارواح وشياطين
العقائد البدائية ام الاله الواحد للاديان الموحدة ،
للمؤمنه باله واحد .
اذن ، تبعا لطابع الجواب عن مسألة

اولوية (اسبقية) المادة او الوعي ، تنقسم المذاهب الفلسفية الى مذاهب مادية ومذاهب مثالية . ولكن للمسألة الاساسية في الفلسفة جانباً آخر ايضا يشكل الاساس لاجل التمييز بين الفلاسفة بموجب علامة اخرى . وهذا الجانب يصوغه انجلس كما يل : «ما هي العلاقة بين افكارنا عن العالم المحيط بنا ، وهذا العالم نفسه ؟ وهل نستطيع فكرنا ان يعرف العالم الواقعي ، وهل نستطيع في تصوراتنا ومفاهيمنا عن العالم الواقعي ان نكون انعكاسا صادقا عن الواقع» .

ان الفلاسفة ، كما يؤكد انجلس ، قد اجابوا باغليبيتهم الساحقة في جميع الازمنة عن هذه الاسئلة بالايجاب ، علما بان هذه الاغلبية كانت تتألف على السواء من فلاسفة ماديين وفلاسفة مثاليين . وعلى سبيل المثال عن الفلاسفة المثاليين يشير انجلس الى هيغل الذي لم يعترف بالامكانية المبدئية لمعرفة

«ماركس ، انجلس ، منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٢ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٧-١٩٨ .

قوانين التطور العالمي وحسب ، بل انتقد الفلاسفة الذين كانوا ينمسون بوجهة نظر مضادة انتقادا ماحقا . وهؤلاء الفلاسفة الذين اسميت نظراتهم باللاعرفانية (باللادرية) كانوا ينكرون امكانية اعطاء حل نهائي لمسألة صحة معارفنا عن العالم . ويذكر انجلس اثنين من ابرز ممثلي اللاعرفانية (اللاادرية) — الفيلسوف الانجليزي دافيد هيوم ومؤسس الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ايمانويل كانط . كان هيوم يعتبر ان احساسات الانسان هي الموضوع الوحيد الذي يستطيع الانسان معرفته ؛ ونبعا لذلك تنحصر مهمة العلم في وصف الاحساسات . اما مسألة معرفة ما يستتبع احساساتنا وما اذا كان يقوم وراءها واقع موضوعي ما ، فان هيوم يعتقد انه يستحيل مبدئيا حلها . ان لاعرفانية كانط تختلف من بعض النواحي اختلافا ملحوظا عن نظرات هيوم . فقبل كل شيء اعترف كانط بوجود العالم الموضوعي ، عالم «الاشياء في ذاتها» ، خارج الوعي البشري . ولكنه انكر امكانية تفهم جوهرها

الحقيقي . وليس في منال المعرفة البشرية ، —
سواء كان المقصود هنا المراقبة المباشرة ام
التحليل العلمى بواسطة مختلف الادوات او
الاجهزة ، سوى الظاهرات اى سوى النسخ
الباهتة ، غير الدقيقة عن «الاشياء فى ذاتها» ،
التي لا تحمل اعلاما صادقا عن الاصول .
وهكذا يجمع انكار التشابه المبدئى بين المعارف
عن العالم والعالم نفسه ، وبالتالي انكار
امكانية معرفة جوهره الفعلى ، هيوم وكانط
رغم كل اصالة نظرات كل منهما ، كما
يجمعهما مع سائر ممثلى اللاعرفانية .

خلافا للاعرفانية ، تلح المادية الديالكتيكية
مع الكثير من التيارات الفلسفية الاخرى على
الامكانية المبدئية لمعرفة كل ظاهرة وكل قانون
فى الواقع الطبيعى والاجتماعى . ومن وجهة
النظر هذه ، يعود عدم فهمنا لبعض من
الظواهر او العمليات الى عدم كفاية تطور
العلم الذى يدرس هذه الظواهر او العمليات ،
وعدم وجود المعلومات الضرورية عنها بالذات
وعن علاقاتها المتبادلة مع العالم المحيط .

ان ترقى العلم العالمى باطراد ، ومنجزاته
الباهرة فى سبل التسرب الى اسرار الكون العميقة ،
تدحض بصورة مقنعة رأى القائل بوجود جواهر
صادقة غيبية ما لظواهر قابلة للمراقبة ، تلك
الجواهر التى نستحيل على المعرفة البشرية كما
يزعم . ولقد كتب لينين فى انتقاد مذهب
كانط بصد «الاشياء فى ذاتها» التى تستحيل
معرفة : «لا يوجد ولا يمكن ان يوجد
قطعا اى فرق مبدئى بين الظاهرة والشيء
فى ذاته . ان الفرق يقوم ببساطة بين ما
صار معروفا وبين ما لم تتم معرفته بعد...»
ومفهوم تماما ان يكون انجلس قد وقف
كذلك ضد نظرات ممثلى اللاعرفانية ناعتا اباها
«بالاحابيل الفلسفية» . ووضح ان اشد الادلة
اقوى الحجج ضد موقف اللادريين لا نكمن
فى المعارف ذاتها ، بل فى النشاط العملى ،
وفى الاختبار العلمى ، وفى الانتاج الصناعى .

« لينين . المختارات فى ١٠ مجلدات . المجلد ٤ ،

ص ١٢٦ . المادية والمذهب النقدى التجريسي .

«فإذا استطعنا ان نبرهن على صحة فهمنا لظاهرة طبيعية بخلق هذه الظاهرة بانفسنا ، وباحداثها بمساعدة شروطها ، وباستخدامها ، فوق ذلك ، في سبيل اغراضنا ، ففي ذلك القضاء المبرم على مقولة كانط بشأن «الشيء في ذاته» . ووضح انجلس فكرته على ضوء مثالين من ميدان العلوم الطبيعية . الاول منهما مأخوذ من الكيمياء التي كانت قد توصلت في ذلك الزمن الى تركيب بعض من التركيبات العضوية من عناصر غير عضوية ، وينت بالتالى بصورة جلية ملموسة صحة تصورات العلماء عن طابع حتى تلك العمليات الطبيعية التي تستحيل مراقبتها مباشرة . المثال الثانى هو تاريخ اكتشاف (عام ١٨٤٦) كوكب نبتون الذى كان قد اقيم البرهان مسبقا على وجوده وبفضل الحسابات التى اجراها العالم الفرنسى لوفيريه ، والذى اكتشف الفلكى الالماني غاله فعلا وجوده فيما بعد بفضل حسابات لوفيريه .

• ماركس ، انجلس . منتخب في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ١٩٨ .

وهكذا تكون افكار انجلس هذه تعليلا لموضوعه من الموضوعات الاساسية في مذهب المعرفة الماركسى بصدد التطبيق (النشاط العملى) بوصفه المعيار الاساسى لصدق المعارف البشرية . وهى تتطابق كليا مع موضوعه من مؤلف ماركس «موضوعات عن فوريباخ» المنشور كملحق للطبعة الاولى المنفردة لمؤلف «لودفيغ فوريباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» . فقد كتب ماركس : «ان مسألة ما اذا كان التفكير الانسانى يتسم بحقيقة موضوعية ليست مطلقا قضية نظرية ، انما هى قضية عملية . ففي النشاط العملى ينبغى على الانسان ان يثبت حقيقة تفكيره ، اى فعاليته وقوته ووجوده في هذا العالم . والنقاش حول فعالية او عدم فعالية التفكير المنعزل عن النشاط العملى انما هو قضية سكولاستية بحتة» . ان نظرية انجلس التى بحثناها اعلاه ترقى الى سنة ١٨٨٦ ، بينما كان ماركس قد كتب موضوعاته

• ماركس ، انجلس . منتخب في ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٧ .

هذه قبل ذلك بأربعين سنة ، ولكنه توجد
بينها ، كما يتبين جيدا ، صلة مباشرة
تماما ، وهي تقدم البرهان الجلي على الاستمرارية
والتعاقب في تطور الموضوعات الأساسية في
الفلسفة الماركسية .

كان انجلس بحاجة الى تحليل مضمون
المسألة الأساسية في الفلسفة تحليلا مفصلا ،
لا لكي يرسم خطا فاصلا مبدئيا بين المثالية
والمادية وحسب ، بل ايضا لكي يبين نقطة
الانطلاق ونقطة الختام في تطور نظرات فوريباخ
الفلسفية . فان هذا التطور ، كما سبق ان
قلنا ، كان قد تلخص في الانتقال من
مواقع الفلسفة الهيجلية المثالية الى مواقع المادية .
وفي جميع النقاط الأساسية عارض فوريباخ
بمفاهيمه فلسفة هيجل ، وصاغ موضوعات
مادية بحثا بصدد جوهر العالم ، والعلاقة
المبادلة بين الوجود والتفكير والخ . . . ولكن
انجلس يشير فيما بعد الى التنافر الجلي بين
نظرات فوريباخ وبعض آرائه الانتقادية بصدد
المادية السابقة والماديين . وهكذا يورد انجلس

كلمات فوريباخ التالية : «المادية بالنسبة لي
هي اساس بناء الكنه الانساني واساس المعرفة
الانسانية ؛ ولكنها ليست بالنسبة لي ، . . .
البناء نفسه . فانا متفق تماما مع الماديين
فيما يتعلق بالماضي ولست متفقا معهم فيما
يتعلق بالمستقبل» .

قد يخيل اننا نواجه تناقضا صريحا بين
نظرة فوريباخ هذه وبين الافكار المادية التي
دعا اليها . ولكن هذا التناقض وهمي ، كما
يبين انجلس ، لان فوريباخ ، حين يتحدث
عن «المادية» ، لا يقصد كنه الفضية ،
ولا يقصد موقفا فلسفيا مبدئيا ، بل يقصد
مدرسة ملموسة ، محددة تاريخيا ، من مدارس
المادية . فان «فوريباخ يخلط هنا بين المادية
كمفهوم عام عن العالم يقوم على فهم معين
للعلاقة بين المادة والروح ، وبين ذلك الشكل
الخاص الذي وجد فيه هذا المفهوم عن
العالم تعبيرا عنه في مرحلة تاريخية معينة

» ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات .

المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٠ .

هي القرن الثامن عشر . وفضلا عن ذلك ، يخلط بين هذه المادية وبين ذلك الشكل المبتذل الممتنهن الذي تستمر به مادية القرن الثامن عشر اليوم في عقول علماء الطبيعيات والاطباء ومع استخلاص هذا الاستنتاج ، اعتبر انجلس من الضروري ، ان يتناول ، ولو بإيجاز ، الخصائص التي كانت تتميز بها مادية القرن السابق والتي طورها في منتصف القرن التاسع عشر «الماديون المبتذلون» بوخنر وفوغت وموليشوت بشكل مشوه فحملت فورباخ على الوقوف منها موقفا سلبيا .

ومن عداد هذه الخصائص ، يبرز انجلس قبل كل شيء اثنتين هما ميكانيكية وميتافيزيائية نظرات الماديين في القرن الثامن عشر ، علما بأنه يربط وجودهما بمسئوى تطور العلوم الطبيعية والانتاج المادى في ذلك القرن . ان سيادة الميكانيكية في مفاهيم الفلاسفة ، كما في مفاهيم علماء الطبيعيات ، انما مردها الى تطور

• ماركس ، انجلس ، منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٠ .

الرياضيات والميكانيك في ذلك الزمن اكثر مما تطورت جميع العلوم الطبيعية الاخرى . وقد نجم تقدمها المتسارع من ان حل الكثير من القضايا العلمية والعملية كان يتوقف على تطور الميكانيك . فان الحاجات الملحة للملاحة ، والشؤون المنجمية ، والشؤون الحربية ، والحرف ، والبناء ، واعمال الرى ، قد دفعت الى القيام بدراسة عميقة ومنظمة لظواهرات تحرك الكواكب والنجوم ، وانطلاق الرصاصة وكلة المدفع ، وتذبذب الرقاص ، وحركة سيول المياه ، وغيرها من الظواهرات .

وقد استطاع الميكانيك ان يحل القضايا التي طرحها امامه تقدم المعرفة العلمية وكل مجرى تطور الممارسة البشرية على العموم . وفي غضون القرن السابع عشر ارسيت اسس الميكانيك العلمية واعطيت الدفعة لتطوره الخارق السرعة ، بفضل جهود غاليله وديكارت وهوغنس ونيوتن وغيرهم من العلماء . وبالنتيجة قام الميكانيك بقفزة عملاقة الى الامام وخف بعيدا وراءه سائر العلوم الطبيعية . وشرع كثيرون من

العلماء يعتبرون الميكانيك علما كليا بمقدوره
لا ان يكشف قوانين تطور الطبيعة غير العضوية
وحسب ، بل ايضا قوانين تطور الطبيعة العضوية
وحتى قوانين تطور المجتمع البشرى ؛ ناهيك
بان اكتساب الميكانيك لوضع خاص قد اسهم ،
كما اشار انجلس ، الى واقع ان اغلبية العلوم
الطبيعية الاخرى كانت لا تزال فى حالة جنينية ولم
تستطع ان تقاوم بنجاح محاولات بعض العلماء
«لتفسير» جوهر وقوانين المواضيع الخاصة لهذه
العلوم باسباب ميكانيكية بحتة .

كل هذا يفسر لنا لماذا اعتمد كثيرون من
مثلى العلوم الطبيعية ، وكذلك بعض الفلاسفة ،
على الميكانيك وطرائقه للمعرفة لدن تفسير
هذه او تلك من ظاهرات الواقع . وقد لقيت
الميكانيكية اوسع الانتشار فى نظرات علماء
الطبيعات المتفلسفين (غاليله ، نيوتن) والفلاسفة
الماديين (هوبس ، لامبترى ، هولباخ) . فان
الفيلسوف المادى الفرنسى لامبترى ، مثلا ،
اعتبر ، فى احد مؤلفاته الكبرى — «الانسان-
الآلة» ، — الكائن البشرى ، آلة تحرك نفسها

بنفسها مثل آلية الساعة . صحيح انه كان
للميكانيكية انصار بين المثاليين ايضا . حسبنا
ان نذكر ديكارت الذى اعتبر ان «الروح» هى
التي تميز الانسان عن الحيوانات ، وشبه
الحيوانات باجهزة اوتوماتيكية ميكانيكية اصطناعية .
وفى معرض الكلام عن سيادة الميكانيكية
فى العلوم الطبيعية والفلسفة فى القرنين السابع
عشر والثامن عشر تجدر الاشارة الى الدور الابجاسى
الذى اضطلعت به فى تطور المعارف عن العالم .
ولا ، احرز الموقف الميكانيكى من ظاهرات
الواقع فى الاونة الاولى نجاحات كبيرة وخلق
قاعدة لاجل تطور العلوم . ثانيا ، حاول العلماء
الذين سلكوا هذا السبيل ان يجدوا اسسا طبيعية ،
مادية ، لمختلف الظاهرات دون اللجوء الى
«مساعدة» شتى الاسباب الدينية الصوفية الغيبية .
ان تفسير حركات الاجرام السماوية من وجهة
نظر الميكانيك قد دحض التصورات الكنسية —
انسكولاستية عن الكنه الربانى للميدان السماوى .
وبالنحو نفسه قوض الموقف الميكانيكى من
الكائن الحى ، رغم تطرف احادية جانبه ،

النظرة المثالية الدينية الى الحياة كما الى شىء غامض ، سرى ، خارق الطبيعة ، وبذلك فتح الطريق الى معرفة كنهه الحقيقى .

وفى الوقت نفسه ، قدم تطور العلوم الطبيعية والفلسفة ، وكل النشاط العملى البشرى ، البرهان الجلى على المحدودية التاريخية للميكانيكية باعتبارها طريقة لتفسير العالم تدعى الشمول .

فان الميكانيكية ، بحصرها كل الواقع المتطور المتعدد الاشكال فى شكل الحركة الميكانيكى ، والتشكيلات المادية المعقدة فى عناصر اولية ، بدائية ، والكل فى مجمل بسيط لاجزائه ، لم تستطع ان تفهم التعقد الديالكتيكى الفعلى لحركة وبنية العالم المادى . ولهذا حين تحققت فى القرن التاسع عشر ، الواحد تلو الآخر ، اكتشافات اساسية غيرت لوحة العالم العلمية واقتضت بالحاح وثبات التفهم الديالكتيكى ، اصبحت ميكانيكية التفكير عند كثيرين من علماء الطبيعة سبب ازمة دعائمهم العقائدية ونحوهم الى المثالية واللاعرفانية .

اما المحدودية الاصلية الثانية التى كانت

تلازم المادية القديمة ، فهى الاسلوب الميتافيزيائى لتفكير ممثلها ، عجزهم عن افهم العالم بوصفه حركة تطور ، بوصفه مادة تتطور تطورا تاريخيا متوصالا * . وهذه الخاصة الملازمة لشكل تاريخى معين من اشكال الفلسفة المادية كان مرتبطا ارتباطا عضويا بخاصتها الاولى — اى بالميكانيكية بوصفها الطريقة السائدة لفهم العالم . فمن جهة ، كان ماديو القرن الثامن عشر يعترفون بالحركة خاصية مميزة للمادة ، صفة لازمة لا تفصل عنها . ولم يجادلوا ولم ينكروا واقع ان العالم المحبط بالانسان يتواجد فى حالة حركة دائمة ، فى حالة تغير دائم . ولكنهم ، من جهة اخرى ، خلصوا حتما الى استنتاجات ميتافيزيائية ، منافية للديالكتيك لانهم حصروا الحركة بكل تعدد اشكالها فى شكلها الميكانيكى . يعلم الميكانيك ان الشىء المتواجد فى حالة سكون يمكن اخراجه من هذه الحالة وتحريكه بنتيجة دفعه بقوة خارجية

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠١ .

ما . ثم يبرهن ان الشيء ، اذ يتحرك ، اذ ينتقل في المكان ، انما يذلل مقاومة البيئة طالما لم تضعف القوة المؤثرة فيه . اما حين تضرب هذه القوة ، فان الشيء يظل يتحرك لمدة ما بالقصور الذاتي ، ولكنه يتوقف في آخر الامر ويبقى في حالة السكون السابقة الى ان يتلقى دفعة جديدة من الخارج . ونظرا لهذا الفهم لجوهر الحركة وآليتها ، كانت الحركة تبدو شيئا موقنا ، نسبيا ، كعنصر من حالة اعم هي السكون . فان الشيء ، حتى بعد اخراجه من حالة السكون ، حتى في تواجده في حركة ، يسعى مع ذلك الى الحالة الاولى ، ويعود اليها ، عاجلا ام اجلا . ومن هنا بنجم ان هذا المفهوم الميتافيزيائي مناقض مباشرة للمفهوم الديالكتيكي الذي يعتبر السكون كشيء نسبي ، ويعترف بطابع الحركة المطلق .

بحصر الحركة في التنقل الميكانيكي في المكان ، استبعد الميتافيزيائيون من مجال بصرهم مسألة طابع التغيرات الكيفية التي تطرأ على اشياء الواقع المحيط . وقد اعتبروا حركة

العالم المادي حركة في دائرة ، حركة تتكرر على الدوام ، وتمر بنفس المراحل ، وتؤول الى نفس النتائج . ومن هنا بنجم ان العالم بكيته ، بوصفه مجمل جميع ظاهرات وعمليات الواقع ، لم يكن له ، في تصورهم ، تطور فعلي ، حقيقي . مثلا . كانوا يعتبرون ان النظام الشمسي وعلى العموم كل القسم القابل للمراقبة من الكون ، كانا يتواجدان دائما في حالة واحدة اي بالضبط في الحالة التي نراها فيها الآن . كذلك كانوا يعتبرون الاستنتاج القائل ان سطح الارض كان دائما كما هو الآن استنتاجا طبيعيا تاما . كان العلماء يراقبون تجدد العالم العضوي على الدوام ، ويدرسون عمليات ولادة وحياة وموت مختلف النباتات والحيوانات والناس ، ولكنهم كانوا يعتبرون كل هذا العالم بمجمله ثابتا لا يتغير ، ولم يسحبوا قوانين وجود الافراد على النوع بمجمله ، وانطلقوا من العدد الدائم لاصناف وانواع الحيوانات والنباتات . وحتى تطور المعرفة نظروا اليه بروح الميتافيزياء ، واعتبروه ضربا من بحث عن

حقائق ثابتة لا تتغير ، تعطى بمجملها معرفة
عن العالم لا ينضب لها معين .
ان الموقف الميتافيزيائي ، اللاتاريخي من
الطبيعة قد رافقه عند ماديبى القرن الثامن عشر
موقفا مماثلا تماما من الحياة الاجتماعية .
فقد زعموا ان طبيعة الانسان نخضع بكيئتها
لقوانين الطبيعة الخارجية . والطبيعة الخارجية
الثابتة التى لا تتغير تناسبها طبيعة الانسان
الثابتة التى لا تتغير ، والنسب سمانها المميزة
وخصايئها متماثلة تماما فى جميع العصور .
وعلى العموم كانوا يبرزون فى الطبيعة البشرية
جانين ، هما الجانب الانانى ، النابع من
سعى الانسان الى الحفاظ على نفسه ، والجانب
الايثارى القائم فى اساس اتحاد الناس فى
جماعة . وانطلاقا من هذا الفهم لجوهر الانسان ،
بنيت مفاهيم مناسبة لا توضح مسلك مختلف
الافراد وحسب ، بل توضح ايضا كل مجرى
التطور الاجتماعى . ومن حيث الجوهر ، حرما
البشرية تاريخها بوصفه صعودا متتابعا على
درجات النضج الاجتماعى . واعتبروا تطور

المجتمع ، لا بمثابة تقدم مشروط موضوعيا من
اشكال اجتماعية دنيا الى اشكال اعلى (تقدم
بتسم ، طبعا ، بطابع معقد ومتناقض جدا)
وحسب ، بل ايضا بمثابة عملية تفاعل فوضوى
بين شعوب مختلفة ، عملية ذات طيف فى
غاية السعة — من الحروب حتى الاحلاف الودية .
اما اساس هذه العملية ، فقد راوه فى نظرات
ومساعى اولئك او هولئك من الشخصيات
البارزة التى تسير الجماهير الشعبية وراءها مثل
القطيع وراء زعمائه . ومن وجهة النظر هذه ،
ظهرت مراحل تاريخية بكاملها ، تشمل
احيانا قرونا وقرونا ، بمثابة شعب مزقية لا مخرج
لها من المجرى الاساسى للتطور الاجتماعى .
هكذا بالذات اعتبروا التطور القروسطى فى اوروبا
الغربية واعلنوه مجرد انقطاع فى مجرى التاريخ
نابع عن سيادة العقيدة الكاثوليكية المتحجرة
وعن البربرية العامة التى دامت الف سنة سيادة
نامة لا منازع فيها . فضلا عن هذا لم يأخذوا
البنة بالحسبان واقع انه فى ذلك العهد بالضبط
تشكلت المقدمات لاجل القفزة العاصفة فى

الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والروحي التي قام بها المجتمع البرجوازي في تطور الحضارة . وقد انكر الميتافيزيائيون التعاقب والاستمرارية في سير العملية التاريخية . وفي هذا الصدد قال انجلس : « . . . وبذلك غدا المفهوم الصحيح عن الصلة التاريخية الكبيرة شيئا مستحيلا ، فكان التاريخ ، في افضل الاحوال ، مجموعة من الامثال والصور في خدمة الفلاسفة لا أكثر » .

وهكذا يرى انجلس نواقص المادية القديمة ، مادية القرن الثامن عشر ، في الطابع الميتافيزيائي والميكانيكي الذي تتسم به تصوراتها عن جوهر الطبيعة والمجتمع والتفكير . علما بان احد الاسباب الرئيسية لذلك ، برأى انجلس ، كان يكمن في المستوى غير الكافي لتطوير العلوم الطبيعية لم يكن بوسعها ان تساعد الفلاسفة في رؤية طابع العمليات الطبيعية الديالكتيكي . كانت العلوم الطبيعية قد كدست

« ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٢ .

كمية صغيرة جدا من المعطيات التي تدل على تطور الواقع المحيط تطورا لامتناهيا — في الزمان والمكان ، — وتلك المعطيات التي كان العلماء قد يوصلوا اليها آنذاك لم تكن معممة ومنظمة ومصنفة بغية انشاء نظرية واحدة عن الكون . ولكن ابتداء من اواسط القرن الثامن عشر شقت اولى الشقوق في لوحة العالم الميتافيزيائية . في البدء صاغ كانط فرضية السمة الطبيعية لنشوء وتطور الارض وكل النظام الشمسي . صحيح ان هذه الفرضية لم تلق تعليلا من العلوم الطبيعية الا بعد مرور سنوات عديدة ، ولكنها بالذات كانت تنطوي على نقطة انطلاق الحركة الى الامام في معرفة القوانين العامة ، الديالكتيكية ، ثم جاءت جملة كبيرة من الاكتشافات في مختلف ميادين العلوم الطبيعية ، ادت الى تأكيد الطريقة التطورية في الجيولوجيا والبيولوجيا وعلم الاحياء والخ . تأكيدا لنديرجيا . ولئن كان الطابع الميكانيكي ، الميتافيزيائي لمفاهيم ماديي القرن الثامن عشر مشروعا ومبررا تاريخيا ، فان ترويج مثل هذه النظرات في اواسط القرن

التاسع عشر على خلفية الاكتشافات العظيمة التي حققتها العلوم الطبيعية والتي يثبت بكل وضوح ديبالكتيك تطور العالم الطبيعي كان مفارقة تاريخية جلية ، وامسى عقبة في طريق استمرار تقدم المعرفة العلمية . ولكن هذه النظرات بالذات كانت تدافع عنها مؤلفات بعض من علماء الطبيعيات المتفلسفين من القرن التاسع عشر واشهرهم العلماء الالمان بوختر وفوغت ومولشوت . ففضلا عن تعميم منجزات العلوم الطبيعية ، وعن نقد العقائد الدينية من مواقع العلم ، دعوا الى موقف مبسط ، ميكانيكي من معرفة جوهر الانسان والمجتمع . وقد تجاهلوا طبيعة الوعي الاجتماعية ، وزعموا ان مضمونه يحدده بصورة رئيسية القوام الكيماوي لمنتجات تغذية الناس . وانطلاقا من هذا ، اعتبروا ان السبب الاساسي ، مثلا ، لوجود العبودية وتشكل الوعي المناسب عند الشعوب المستعمرة هو التغذية النباتية التي كانت تلجأ اليها على الاغلب . واعتبروا التفكير ضربا خاصا من مادة هي نتاج الدماغ الذي يعمل مثل

سائر اعضاء الانسان الاخرى (وقد زعم فوغت على الاخص ان الدماغ ينتج الافكار كما ينتج الكبد الصفراء) .

وقف ممثلو هذا الانجاه اجمالا مواقف مادية ، ولكن انجلس نعت نظراتهم «بالمادية المبتذلة» بسبب الموقف المبسط من القضايا المذكورة ومن كثير من القضايا المعقدة الاخرى في الفلسفة والعلوم الطبيعية . كان الماديون المبتذلون يروجون على نطاق واسع نظراتهم في مؤلفات صدرت وترجمت غير مرة الى كثير من اللغات الاوروبية . وبفضل هذا ، اقتصر مفهوم «المادية» بالنسبة لقسم كبير من جمهور القراء على نوعها هذا بالذات . وبديهي ان فوريباخ ، الذي كان بعيدا عن هذا التفسير البدائي جدا لجوهر الانسان ونفسيته ، لم يشأ ان يشبهوا مذهبه بمثل هذه المادية او حتى ان يقربوه منها . وقد قال انجلس : «كان فوريباخ على حق تماما حين نفى عنه كل مسؤولية بصدده هذه المادية ، ولكنه لم يكن من حقه ان يخلط بين تعليم المبشرين المتجولين وبين

المادية على العموم» .

ان فوريباخ الذى رفض موقف الماديين المبتدلين المبسط قصدا وعمدا من معرفة العالم ، والذى انتقد عن حق وصواب ما يلزمهم من نواقص ، لم يستطع مع ذلك ان يتغلب كليا على ما يلزم نظراتهم من احادية جانب ومن ميتافيزيائية ، ولم يرتفع الى فهم قوانين العالم المادى والروحى الديالكتيكية . وقد بين انجلس ان مذهب فوريباخ المادى ، مثله مثل انشاءات الفلاسفة الماديين السابقين النظرية ، كان غير منسجم فى عناصر جوهرية . اولا ، اعترف فوريباخ بضرورة وخصب التحالف الوثيق بين الفلسفة والعلوم الطبيعية ، ولكنه لم يستطع ان يعمم المادة التى جمعتها العلوم الطبيعية ويصوغ نظرة تاريخية حقا الى الطبيعة . ويعتبر انجلس ان هذا لم ينجم عن اسباب موضوعية مرتبطة بمستوى تطور العلوم وحسب ، بل نجم ايضا عن الظروف الذاتية للنشاط النظرى الذى بذله

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٢ .

هذا الفيلسوف الالماني . فان فوريباخ الذى اضطر الى العيش زمنا طويلا فى قرية نائية مفضولة عن العالم الخارجى ، لم يستطع ان يتبع على الدوام احدث اكتشافات العلوم الطبيعية وان يكون دائما على علم بجميع مكتسبات التفكير النظرى . ويلقى انجلس الذنب فى ذلك على اوضاع المانيا المؤسفة التى كانت تجعل كراسى تدريس الفلسفة يحتلها الاختياريون المتفلسفون وحدهم ، فى حين ان فوريباخ الذى كان ارفع من جميع هؤلاء التافهين الى ما لا حد له ، كان عليه ان يحيا حياة الفلاحين وان يقبع فى قرية نائية» .

ثانيا - وهذا هو الامر الاهم - نجلى انعدام الانسجام فى المادية الفوريباخية (كما فى عموم المادية السابقة لماركس) فى ان فهم الواقع الاجتماعى قد بنى من حيث الجوهر على اساس غير مادى . ولم يكتب لفوريباخ ان يسحب المادية على معرفة قوانين التاريخ البشرى وان ينظر الى

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٣ .

مضمون العلوم عن المجتمع نظرة مادية . ومن جديد يرى انجلس السبب الرئيسى لذلك فى عزلة فوريباخ الاضطرارية التى اضطرته «الى ان يضع افكاره فى عزلة كاملة : وهو الذى كان يحتاج من حيث طبعه اكثر من اى فيلسوف آخر الى ان يتصل بالمجتمع ، بدلا من ان يبدعها فى لقاءات ودية او عدائية مع من هم من منزله» .

وهكذا يتحول المادى فوريباخ فى تفسير الحياة الاجتماعية الى مثالى . ومن الطريف ان شاركه ايضا نعت فوريباخ بالمثالى ولكنه لم ير مثاليته حيث كانت بالفعل . فقد كتب شاركه : «فوريباخ مثالى : انه يؤمن بتقديم الانسانية» واصل : «ومع ذلك ، تبقى المثالية اساسا ، قاعدة لكل شىء . ان الواقعية فقط تقينا من الضلال حين نتابع مساعيها المثالية . البست الشفقة ، والحب ، وخدمة الحقيقة

« ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٤ .

ولحق قوى مثالية ؟ » .

وفى معرض تحليل آراء شاركه ، بين انجلس ان هذا «الباحث» لا بداع فوريباخ يحاكم ، اساسا ، بنفس طريقة التافه الضيق الافق الذى اخذ يفهم ، بتأثير افتراء الكهنة على المادية تأثيرا دام سنوات طويلة ، ان المادية تعنى «الشه ، والسكر ، والشهوة ، والملذات الجسدية ، والغرور ، وحب المال ، والبخل ، والطمع ، والركض وراء الارباح ، والمضاربات فى البورصة ، — اى بالاختصار ، كل المآثم الخسيسة التى يرتكبها هو نفسه خفية . ويفهم من المثالية الايمان بالفضيلة ، والحب للانسانية جمعاء ، وبوجه عام ، الايمان «بالعالم الافضل» الذى ينادى به امام الآخرين ، ولكنه هو نفسه لا يعتقد به الا حين يتوجب عليه ان يجتاز مرحلة الافلاس او الصداق بعد السكر التى تتبع بالضرورة

« استشهد اوده انجلس . ماركس وانجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٤ .

تذبذبه «المادى» المعتاد .

وبديهي ان مثالية فوريباخ كانت تختلف
تماما عما حاول شتركة ان يراها . وقد خصص
انجلس الفصل الثالث من مؤلفه لعرض جوهر
المثالية الفوريباخية الفعلية .

ان التناقض بين التفسير المادى للطبيعة
وبين الفهم المثالى للحياة الاجتماعية هو التناقض
الاساسى فى مذهب فوريباخ الفلسفى . وقد
غدا هذا التناقض السبب الرئيسى لهذا الواقع ،
وهو ان هذا المذهب الذى اعطى فى جنبه
تطور النظريات الفلسفية والاجتماعية السياسية
بثة جبارة قد فقد مع ذلك حيويته واهميته بسرعة
كبيرة وغاب فى حقل تاريخ الفكر البشرى .
ان مصادر هذا التناقض تكمن فى فلسفة فوريباخ
بالذات ، فى مبادئها الاساسية ، المنطقية ،
التي يجب الاطلاع عليها وان باعم نحو .

لقد جاء فوريباخ الى المادية ، كما سبق
ان قلنا ، عبر الانتقاد المدفوع الى نهايته المنطقية
للدين ولاقرب قريباته - الفلسفة المثالية ، وذلك ،
قبل كل شئ ، فى شخص المثالية المطلقة

هـ ماركس وانجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٥ .

الهيغلية . وقد رأى عيب العقيدة المثالية
الاساسى فى اعتبار الوجود والفكر امرا واحدا ،
فى الاعتراف بالفكر ، اى المبدأ المثالى ،
مصدر كل كائن . وخلافا للمثالية أكد فوريباخ
ان العالم مادى من حيث جوهرة ، وانه يوجد
خارج الفكر البشرى الذى
يعرفه وبصورة مستقلة عنه . ان الطبيعة ، بكل
تنوع وتعدد مظاهرها ، هى منبع واساس وجود
الانسان ، وهى تقرر اصله ونظوره . والانسان
هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة ويخضع ، مع
قوانينه الخاصة ، لنفس القوانين الموضوعية
التي تخضع لها سائر الكائنات الطبيعية . فلا
داعى للبحث ، لاجل تفسير الطبيعة ، ولاجل
تفسير الوجود البشرى ، عن اسباب ما غير التي
نراها فى الواقع المحيط بنا . وعدا عالم
الظواهر الطبيعية الفعلية ، لا وجود لاي عالم
آخر ، غيبى او فائق الطبيعة . وتبعاً لذلك ،
رأى فوريباخ المهمة الاساسية التي تواجه الفلسفة
الجديدة التي ابتدعها «فى حصر كل ما هو
خارق للطبيعة فى الطبيعة بواسطة الانسان ،

وفى حصر كل خارق للانسان فى الانسان بواسطة
الطبيعة» .

اسميت فلسفة فوريباخ المادية بالفلسفة
الانثروبولوجية . لان مؤسسها جعل الانسان فى
مكان الصدارة من تعاليمه واعلن ان معرفة
الانسان والطبيعة التي تلده هى الهدف الاساسى
للفلسفة والعلوم الطبيعية . وكتب يقول : «ان
الفلسفة الجديدة تجعل من الانسان ، بما فى
ذلك الطبيعة بوصفها اساس الانسان ،
الى الموضوع الوحيد والكللى والاسمى للفلسفة
ونحول بالتالى الانثروبولوجيا ، بما فيها الفيزيولوجيا
الى علم كللى» .

ان مادية فوريباخ الانثروبولوجية تنطلق من
اعتبار الانسان كائنا نفسانيا فيزيولوجيا . فان
الانسان ، بنظر هذا الفيلسوف الالماني ، هو
فى آن واحد موضوع مادية وذات مفكر ، وهو

Feuerbach L. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1904, *
Bd. 2, s. 390.

من كلمة «انثروبولوجيا» Antropologie وتعنى علم
الانسان
المرجع نفسه ، ص ٣١٧ .

عبارة عن وحدة لا تنقسم عراها بين المبدأ المادى والمبدأ الروحى . ومن هذا الموقف رفض فوريباخ تصورات المادية المبتذلة عن الانسان بوصفه آليّة ما من آليات الطبيعة . ولكن انثروبولوجيا فوريباخ ارتكزت على تفسير بيولوجى (وليس على تفسير اجتماعى) لطبيعة الانسان ، الامر الذى حال دونه ودون الخروج من اطار الموقف الميتافيزيائى من معرفة العالم . ولهذا السبب بالذات ، كما يشير انجلس ، تبدو تعاليم فوريباخ الفلسفية ، من حيث مضمونها الايجابى ، افقر بكثير من مثالية هيغل الديالكتيكية التى يخفى غلافها الصوفى تحليلا عميقا لقوانين العالم الفعلى الاساسية . وقد قال انجلس : «اما عند فوريباخ ، فالامر بالعكس تماما . فهو من ناحية الشكل واقعى ، اذ يتخذ نقطة الانطلاق الانسان ؛ ولكنه لا ينسب بينت شفة عن العالم الذى يعيش فيه هذا الانسان ، ولهذا يظل الانسان عند فوريباخ دوما نفس الانسان المجرد الذى . . لا يعيش فى عالم واقعى ، متطور تاريخيا ومعين تاريخيا ؛ ورغم انه على

صلة مع اناس آخرين ، الا ان كل واحد منهم مجرد بقدر تجرده هو نفسه» . وهكذا اكتفى فوريباخ بتحليل طبيعة الانسان من جانبها البيولوجى لوجه الحصر ، واعلن ان الانثروبولوجيا علم كلى قد يساعد فى فض جميع اسرار الوجود البشرى ، وبذلك ظل من حيث جوهر الامر فى نفس المستوى الذى بلغه ماديو القرن الثامن عشر الذين يتقدمهم . وبالفعل ، اذا كان الانسان يبرز عند هؤلاء الماديين فردا مجردا ، نتاجا هامدا للبيئة الاجتماعية المحرومة من التطور التاريخى الحقيقى ، فان «انسان» فوريباخ فرد بيولوجى ليس اقل تجردا ، فرد مفصول اصطناعيا عن بيئته الاجتماعية ، ومدروس خارج ظروف وجوده الاجتماعى التاريخية الملموسة وخارج نشاطه العملى . كذلك لا تتطور طبيعة هذا الانسان ، فهى سرمدية ، كما ان نظامه الاساسية التى تحدد تصرفاته سرمدية مثل طبيعته . ان لاتاريخية مادية فوريباخ الانثروبولوجية

• ماركس وانجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٩ .

وميتافيزيائيتها قد كانتا السبب الاساسى لطابع مفاهيمه السوسولوجية المثالى . وقد اشير الى هذا فى المؤلف المشترك «الايديولوجية الالمانية» الذى سبق ان كتبه ماركس وانجلس فى ١٨٤٥ - ١٨٤٦ : «... وبما ان فوريباخ مادى ، فان التاريخ يقوم خارج مجال بصره ؛ وبما انه يدرس التاريخ ، فانه ليس البتة ماديا» .
ويبين انجلس بجلاء فى الفصل الثالث من مؤلفه الطابع المثالى الذى يلزم فهم فوريباخ لجوهر الحياة الاجتماعية ، والذى تبدى ببالغ الوضوح فى نظراته الى الدين والعلاقات الاخلاقية .
ان النضال ضد الدين لم يكن بالنسبة لفوريباخ نقطة الانطلاق من المثالية الى المادية وحسب ، بل اصبح كذلك القضية الرئيسية فى حياته . وخلافا لنظرات الكثيرين من الفلاسفة السابقين ، وفى المقام الاول بينهم المثاليون ، اعتبر فوريباخ الفلسفة والدين فهمين للعالم ينفى احدهما الآخر . ولم ير سبب حيوية العقائد

٥ ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٢٧ .

الدينية فى خداع الجماهير الشعبية الجاهلة وحسب ، كما اثبت المنورون الفرنسيون ، بل فتش كذلك عن الاسباب الحقيقية لنشوء الدين ووجوده فى الانسان بالذات وفى ظروف حياته ، وقبل كل شىء فى الصلة المتبادلة بين الناس والطبيعة ، وفى الصلة المتبادلة بين الناس انفسهم . ان الدين ، حسب فوريباخ ، هو نتاج النفسية الانسانية ؛ ولكنه لا ينبع من عقل الانسان ، بل ينبع من خياله ، من تصوره . وقد اكد فوريباخ انه يجب اعتبار الانفعالات ، والاحساسات ، التى تنشأ فى الانسان فى سياق التفاعل مع العالم المحيط السبب الفعلى للدين . ان الانسان ينحطى بقوة تصوره ، بقوة خياله ، اطار التجربة الحسية المباشرة من المعاشرة مع الطبيعة ، ويخلق كائنا ربانيا ، كلى الجبروت ، كلى الخير ، حكيمًا ، قائما فوق العالم . وفى الدين انعكس العالم والانسان انعكاسا مشوها ، خياليا ؛ وفيه تبرز الاشياء والظواهرات ، لا بالصورة التى تتواجد بها فى الواقع ، بل مشوهة بمرآة التصور المريض .

ان الدين مجرد الانسان من قواه وخاصياته ،
يؤلّوها ، ويعارض بها الانسان بوصفه كائنا
مستقلا . وقد كتب فويرباخ : « ان الكائن الرباني
لا يعدو ان يكون جوهر انسانيا مطهرا ، محررا
من الحدود الفردية ، اى من الانسان الفعلى ،
الجسدى » .

ان الناس يصفون على الآلهة جميع الصفات
التي بقدرتها أكثر ما يقدرون فى زمن معين فى
انفسهم بالذات . وهذا ما يفسر ، من جهة ،
وجود آلهة مختلفة عند الشعوب ذاتها فى مختلف
مراحل تطورها التاريخى ، ويحدد ، من جهة
اخرى ، وجود آلهة واحدة من حيث مواصفاتها
الجوهرية عند مختلف الشعوب التى بلغت
مستوى واحدا تقريبا من التطور . وفى معرض
السخر من تبعية التصورات الدينية عن الاله
خيال تصورات الناس عن انفسهم بالذات ،
لاحظ فويرباخ انه لو كانت الطيور تؤمن فى
الاله ، لكان بدا لها كائنا ذا ريش ، لان

القدرة على الطيران بمساعدة الاجنحة هى
بالنسبة للطير شرط ضرورى للوجود العادى .
ويرى فويرباخ ان شعور الانسان بالتبعية
والمحدودية والعجز خيال العالم الخارجى يقوم
فى اساس الاوهام الدينية . وقد كتب فى
مؤلفه «محاضرات فى جوهر الدين» يقول :
« اذا نظرنا الى اديان من يسمونهم بالمنوحشين
الدين يحدثنا عنهم الرحالة ، وكذلك الى
اديان الشعوب المتمدنة ، واذا نظرنا الى روحنا
بالذات التى هى فى منال مراقبتنا مباشرة وبدون
خداع ، فاننا لا نجد تفسيراً آخر للدين ، نفسانيا
ومناسبا وواسع الحياة غير شعور او ادراك التبعية » .
ان الانسان يدرك قبل كل شىء تبعية
الناتجة خيال الطبيعة ، خيال قواها الرهيبة ،
التي تهدد على الدوام وجوده . ولهذا السبب
بالذات كانت الطبيعة تاريخيا اول موضوع
للعادة الدينية .

ان شعور الخوف هو التعبير الاوسع انتشارا

Feuerbach L. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1908, *
Bd. 8, s. 31—32.

Feuerbach L. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1903, *
Bd. 6, s. 17.

والأشد وضوحاً عن التبعية . وهذا الشعور بالذات يقوم في أساس العقائد الدينية ، سواء منها عقائد المتوحشين البدائيين أم عقائد الشعوب المتمدنة ، بما فيها اتباع الدين المسيحي وسائر الأديان العالمية . إن فورباخ يرى مصدر الدين في الانانية لأن شعور التبعية قد ينجم من عناية الإنسان الانانية بشخصه الكريم . وهذا يعنى ، بتعبير آخر ، أن الدين ينبع من حب الإنسان لنفسه بالذات ، من سعيه وراء السعادة ، وبشكل بالنسبة للناس وسيلة للغذاء ، لأنهم يأملون في تحقيق أحلامهم بتوسلهم من الآلهة .

ومن الممكن أن نجد في مؤلفات فورباخ آراء تتعلق سواء بالشرطية الطبيعية أم بالشرطية الاجتماعية لنشوء العقائد الدينية . فقد جاء ، مثلاً ، قوله أن ويلات الحروب وفظائعها ، مثلها مثل الكوارث الطبيعية ، تجبر الناس على التوسل من الرب ، وتخلق المشاعر الدينية . وفي مكان آخر ، يحلل فورباخ ظروف نشوء العبادة الدينية وظهور مختلف الطقوس الدينية —

الصلاة ، الندم ، التضحية ، وما إلى ذلك ، — فيقيم صلة مباشرة بينها وبين طابع العلاقات الاجتماعية وشكلها ، ويشير إلى أن الناس ينظرون إلى الآلهة كما اعتادوا أن يروا إلى حكامهم ؛ وأنهم يسعون إلى كسب رحمة الرب ، بنفس الوسائل التي يسعون بها إلى استمالة حكامهم : بواسطة التضارعات والتضحيات والتقديرات .

ولكن نادراً جداً ما تظهر هذه الآراء بصدده الأصل الاجتماعي للدين . وهى تبقى مجرد تخمينات ولا تدخل المنهج العام لنظرات فورباخ بصفة جزء مكون عضوى . أما إجمالاً ، فإن فورباخ مثالى فى فهم جوهر الدين وأصله ، الأمر الذى ينجم حتماً من انثروبولوجيته . إن فورباخ على حق حين يقول أن الخوف ولد التصورات الدينية ، وأن شعور التبعية ، والسعى إلى صيانة الذات يجبران الإنسان على تعليق الآمال على الرب . ولكن هذه المشاعر هى ، بالنسبة له ، قبل كل شيء ، نتاج لطبيعة الإنسان البيولوجية الثابتة التى لا تتغير .

ولكن اصفاء صفة الاطلاق على هذا العامل البيولوجي يرافقه تجاهل تام تقريبا للظروف الاجتماعية ولاسيما للظروف الاقتصادية . وخارج مجال بصر فورباخ تبقى عملية تطور ونكاثر قوى المجتمع المنتجة ، التي بتحرر الناس في سياقها ، من جهة ، من التبعية المرهقة خيال القوى الطبيعية العمياء ، ويشعرون اكثر فاكثرا ، من جهة اخرى ، بتبعيتهم خيال القوى الاجتماعية مع انقسام المجتمع الى طبقات متضادة ، ومع ظهور استثمار واضطهاد الاغلبية من قبل الاقلية . ان الاهتمام الخارق باساس العقائد الدينية النفساني ونجاهل جذورها الاجتماعية في الوقت نفسه هما اللذان يحددان ما تتسم به نظرات فورباخ الى الدين من طابع مثالي عام .

وحين ابان فورباخ مصادر الدين الارضية ، ركز جل الانتباه على ذلك الدور السلبي الذي يضطلع به الدين في حياة الناس . فيما ان الاله ، حسب نصيرات فورباخ ، كان في البدء انعكاسا لجوهر الانسان ، فانه يغترب

فيما بعد عن الانسان ، ويصبح موضوعا مستقلا . فلا ينسبون الى الاله وجودا مستقلا وحسب ، بل يحولونه من مخلوق من صنع الانسان الى خالق للانسان ، الى السبب الاول لكل موجود ، وبذلك يقع الانسان في تبعية «الكائن الاعلى» الذي اخلقه بنفسه . ان الدين ، كما يرى فورباخ ، يشل ارادة الانسان ورغبته في حياة افضل في هذا العالم ، في العالم الفعلي . وهو يستعيز عن السعي الى تحويل هذا العالم بانتظار المكافأة المقبلة الخارقة للطبيعة باستكانة وصبر . وفضلا عن ذلك ، يعيق الدين حتى تعميق ونشر المعارف عن العالم ، ويفرس الجهل في صفوف الجماهير الشعبية . وعلى مثال المسيحية يبين فورباخ ان «الدين لا ينطوي اساسا على مبدأ الثقافة والتعليم ، لانه لا يتخطى حدود ومصاعب الحياة الارضية الا بالخيال والاله والسماء» .

ان فورباخ ينتقد الدين انتقادا عميقا ومعملا

Feuerbach L. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1903, *
Bd. 6, s. 261.

بوصفه مصدرا للكذب والجهل وخمود الجماهير الشعبية الاجتماعي والسياسي ، ولكنه ، كما يلاحظ انجلس ، «لا يريد مطلقا ان يلغى الدين ، انما يريد ان يحسنه» . ويبين فورباخ كذب جميع التعاليم الدينية القائمة ، ولكن لا لازالة الدين كليا من حياة البشر ، بل لبناء دين جديد ، حقيقي ، يناسب طبيعة الانسان الحقيقية ، ويساعد الناس في بلوغ السعادة الفعلية ، لا في السماء ، بعد المحاكمة الربانية العليا ، بل على الارض .

ينطلق فورباخ من الاعتراف بضرورة الدين في المجتمع البشري ، لا في الماضي فقط ، بل ايضا في المستقبل . وفضل عن ذلك ، يفسر الدين بصورة اوسع مما كان مصطلحا عليه ، ولا يحصره في الاشكال التي كانت قائمة ولا تزال قائمة للعقائد الدينية . وفي هذا الصدد كتب انجلس يقول : «فالدين ، تبعا لنظرية فورباخ ، هو علاقة قلبية بين الانسان والانسان

• ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٦ .

قائمة على العاطفة ، علاقة كانت حتى الآن تبحث على حقيقتها في الانعكاس الخيالي للواقع — بواسطة اله واحد او عدة آلهة ، هذه الانعكاسات الخيالية للصفات الانسانية — وتجدها الآن ، مباشرة ، ودون اى وسيط ، في الحب بين «انا» و«انت» .

وهكذا لا يحتاج دين فورباخ الجديد الى الاله بوصفه كائنا خياليا جبارا ينوكل الانسان على رحمته ومساعدته . وليس لهذا الدين الجديد طقوس ، وليس به حاجة الى الكنيسة مع خدمها الكثيرين . وهذا الدين «الحقيقي» ليس سوى تأليه للعلاقات بين الناس ، وهو يقوم على المبدأ القائل «الانسان للانسان اله» ، علما بان فورباخ لا يرى في جميع العلاقات البشرية سوى جانب واحد هو الاخلاق التي ترتكز على سعي الانسان بالفطرة الى السعادة . ان العلاقات الاخلاقية بين الابناء والاباء ، بين الاخوة والاخوات ، بين الأزواج والزوجات ،

• ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٦ .

بين الناس على العموم ، هي ، برأى فوريباخ ، علاقات دينية فعلا . وبما ان فوريباخ لا يرى في حياة الناس العملية ، المادية تلك القوى التي تربطهم بعضا الى بعض ، وتجبرهم على الانحداد في جماعة ، فانه يضطر الى البحث عن هذه القوى ، لا في الحياة المادية ، بل في الحياة الروحية ، ويجدها في الدين . اما « البرهان » بالنسبة له ، فهو واقع ان كلمة religion (الدين) باللغة اللاتينية كانت تعنى في البدء «الصلة» . ومن هنا خلص فوريباخ الى القول ان كل صلة متبادلة بين شخصين هي دين . ووضح ان يكون القراء باغليبيتهم الساحقة قد استقبلوا بسخرية هذه التعليقات في مؤلفات فوريباخ ، كما ان انجلس كتب ان «امثال هذه التلاعبات في اصل الكلمات تؤلف آخر مخرج للفلسفة المثالية» .

ان جميع الاديان التي كانت قائمة حتى الآن قد ظهرت ، كما يؤكد فوريباخ ، من

* ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٧ .

حب الانسان لنفسه . الحب انما هو القانون الاعلى للوجود الانساني ، وهو بشكل اعمق اعماق جوهر الانسان . وقد اتخذ الحب اشكالا خيالية في جميع الاديان القائمة . اما في الواقع ، كما يلاحظ فوريباخ ، فان الحب هو بحد ذاته الدين الحقيقي . وقد قال : «الحب انما هو الاله نفسه ، وبدون الحب ، لا اله» .

وفي معرض انتقاد آراء فوريباخ حول ضرورة الدين لاجل اقامة علاقات عادية بين الناس ، يلاحظ انجلس ان مثالية هذه الآراء تكمن بالضبط في اصفاء الطابع الديني على جميع العلاقات بين الناس المرتكزة على الميل المتبادل — الصداقة ، التعاطف ، التضحية بالذات ، الحب الجنسي . ان فوريباخ يرفض الاعتراف بالقيمة الذاتية لهذه العلاقات ، وهو لا يريد قبولها الا بعد نكربسها بكلمة «الديــــن» (religion) . وفي آخر المطاف ، يخلص

Feuerbach L. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1903, *
Bd. 6, s. 59.

فوريباخ الى القول انه يعلن الحب الجنسي
احد الاشكال العليا ، ان لم يكن الشكل
الاعلى ، لاغتناق دينه الجديد .

وبتعاليم فوريباخ بشأن الدين ، ترتبط ارتباطا
لا انفصام له تعاليمه الاخلاقية التي ينتقدها انجلس
هى ايضا فى الفصل الثالث من مؤلفه .

من افضال فوريباخ انه يوجه تعاليمه الاخلاقية
قبل كل شىء ضد الاخلاق المسيحية ، منتقدا
اياها انتقادا حادا ، ماحقا . وهو يرى انه
لا يصح ان تكون الاخلاق الدينية ضابطا
للعلاقات المتبادلة البشرية ، لان علاقات
الانسان بالاله تعلقو على كل شىء بنظر الدين ،
ومن بعدها فقط تأتى العلاقات بين الناس .
ويرى فوريباخ انه لا توجد اية صلة داخلية بين

العقائد الدينية والقواعد الاخلاقية ، وانها ،
فضلا عن ذلك ، غالبا ما تناقض بعضها
بعضا حين تلقى المسلمات نفسها تقديرات
متضادة من وجهة نظر الاخلاقية البشرية ومن
جانب المقتضيات الدينية . ويرهن فوريباخ
ان الدين ، اذ يطلب من الناس نكران الذات

من اجل الاله ، انما يشوه بالتالى مفهوم
الخير ، ويعارض بفهمه الخاص للفضيلة
المقتضيات الفعلية للطبيعة البشرية . وقد قال
فوريباخ : « حيث تركز الاخلاق على اللاهوت ،
ويرتكز الحق على الاوامر الربانية ، يمكن تبرير
وتعليل اشد الاشياء اغراقا فى اللااخلاقية والظلم
والخزي والعار » .

ويعارض فوريباخ الاخلاق الدينية غير الطبيعية
وغير المعقولة بمذهبه عن الاخلاقية ، المنطلق
من وحدة الناس والصلة المتبادلة فيما بينهم .
وهو يرى ان الحياة البشرية كلها تركز على
السعى وراء السعادة ، الملازم لكل انسان منذ
الولادة . ولكن النجاح فى تحقيق هذا السعى
يتطلب مراعاة شرطين ضروريين . اولا ، يجب
ان يرى المرء سلفا وكليا العواقب المحتملة
لتصرفاته ، التى غالبا جدا ما يتسم كثير منها
بطابع سلبى . ثانيا ، اننا اذ نلبي سعيانا وراء
السعادة ، لا يمكننا ان ننسى ان اناسا آخرين

Feuerbach L. Sämtliche Werke. Stuttgart, 1908, *
Bd. 9, s. 330.

يتصرفون كذلك مثلنا وانه لا يحق لاعمالنا في
اي حال من الاحوال ان تعيقهم .

ويحلل انجلس هذه الموضوعات في تعاليم
فورباخ الاخلاقية ، ويشير الى طابعها التجريدى
والتافه : « ان قواعد الاخلاق الاساسية عند
فورباخ ، التي تنجم عنها جميع القواعد الاخرى
هى ، اذن ، التضييق العقلانى بالنسبة لانفسنا
والحب - الحب دائما ! - فى العلاقات مع
الآخرين . ولا تستطيع محاكمات فورباخ النظرية
جدا ولا مدائح شتاركة المفردة اخفاء حقارة
وتفاهة هاتين الموضوعتين او الثلاث » .

وسبب ذلك ، كما يلاحظ انجلس ، هو
الموقف المجرد الانتروبولوجى الذى يفقه المفكر
الالمانى فورباخ من الحياة الاجتماعية . فمن
جهة ، يتناسى فورباخ كليا الظروف المادية
لحياة الناس . وخارج مجال بصره تبقى قضية
تلبية حاجات الانسان المادية الاولى ، الامر
الذى لا يمكن بدونه لا السعى وراء المتعة

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١١ .

١٠٢

العليا الروحية وحسب ، بل ايضا حياته بالذات .
ومن جهة اخرى ، لا تأخذ مقتضيات التعاليم
الاخلاقية الفورباخية بالحسبان اطلاقا الظروف
التاريخية الملموسة لحياة المجتمع . ودعوة
فورباخ الى مراعاة حق جميع الناس فى تحقيق
سعيهم الى السعادة قد بدت بمثابة سحر وهزء
فى المجتمع البرجوازى الذى تمرقه تناقضات
طبقية وقومية وتناقضات اجتماعية اخرى فى غاية
الحدة ، فى مجتمع تفرق اقلبيته فى البذخ
على حساب الاغلبية واستثمارها .

كتب انجلس يقول : « وبالاختصار حدث
لنظرية الاخلاق عند فورباخ مثل ما حدث
لجميع النظريات التى تقدمتها . فهى مفصلة
لجميع الازمنة ، ولجميع الشعوب ، ولجميع
الاوضاع ، ولهذا السبب بالضبط ليست صالحة
للتطبيق فى اى وقت وفى اى مكان » . لقد
اراد فورباخ ان يصوغ اخلاقا مطلقة تضبط سلوك
الافراد وحياة المجتمع بأسره ، ولكنه بنى انشاء

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٠٣ .

١٠٣

الانقلاب الثوري في الفلسفة

ان الفصل الختامي في مؤلف انجلس
«لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية» هو ، من حيث الجوهر ، لمحة
وجيزة في تاريخ انشاء الفلسفة الماركسية
المادية الديالكتيكية وفي جوهرها . وقد كشف
انجلس مضمون الفلسفة الماركسية ودورها التاريخي
بوصفها تعليلا نظريا لنضال الطبقة العاملة الثوري ،
وبين الفرق الجذري بينها وبين المناهج الفلسفية
السابقة ، وبذلك أكد بصورة مقنعة الاستنتاج
القائل ان نشوء الماركسية عني انقلابا ثوريا
حقا في تطور الفكر البشري .

ويدرس انجلس نشوء وتطور المذهب الفلسفي
الماركسي في مجرى تطور كل الفلسفة الالمانية
بعد هيغل ، ويلاحظ ان الحياة الفلسفية في
المانيا قد فقدت لمعانها وعمقها منذ وفاة
هيغل . فان اغلبية اتباع الفلسفة الهيجلية لم

نظريا آخر ، عاجزا تماما امام العالم الفعلي .
ان فويرباخ لم يستطع ، سواء في فلسفة
الدين ام في علم الاخلاق ، ان يخرج من
مملكة التجريدات الى العالم الفعلي ، الى
الناس الاحياء ، الملموسين ، ولم يستطع
ان يعرف المجتمع في تطوره التاريخي ،
والناس في نشاطهم المادي التحويلي ، وان
يكشف الصلة الفعلية بين امرؤ بمفرده وبين
المجتمع بأسره . ولكن الانتقال من التنظير
الفلسفي التجريدي الى معرفة الحياة الاجتماعية
وتغييرها بصورة جذرية كان قد نضج : فجاءت
تعاليم فويرباخ الفلسفية تشير الى الاتجاه وتعطي
بنة اضافية لاجل هذا الانتقال .

تستطع ان تقترب من ذلك المستوى النظرى الذى كان ملازما لمؤلفات معلمهم البارزة .
وحتى فويرباخ الذى كان يقف اعلى من الجميع الى ما لا قياس له ، لم يستطع ، بحكم تذبذب مفاهيمه وتجردها ، ان يعارض المنهج الهيجلى وغناه الموسوعى الايجابى باى شىء . ولكن بذور التفكير الديالكتيكى النقدى الثورى التى بذرها هيجل كان لا بد لها من ان تعطى ، عاجلا ام آجلا ، نباتات قابلة للحياة . وهذه النباتات ظهرت . وقد كتب انجلس : «... مع انحلال المدرسة الهيجلية ، نشأ اتجاه آخر ايضا ، وهو الوحيد الذى اوتى أكله . وهذا الاتجاه مرتبط بصورة رئيسية باسم ماركس» .

اثر فويرباخ ، قطع ماركس وانصاره كل صلة بفلسفة هيجل المثالية وانتقلوا الى مواقع مادية . وقد وضعوا فى رأس زاوية بحوثهم النظرية مبدأ دراسة العالم كما هو بالفعل ، دون البحث عن اية اسباب

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٤ .

غيبية ، مخفية عن الادراك المباشر . ولكن ، خلافا لفويرباخ ، كما خلافا عن كل المادية السابقة ، لم يتوقف هذا الاتجاه الفلسفى عند التفسير المادى للطبيعة ، بل مضى قدما . وقد اوضح انجلس قائلا : «... ولم يتميز الاتجاه الجديد الا بانهم لاول مرة نظروا جديا الى المفهوم المادى عن العالم وطبقوه بانسجام — من حيث الخطوط الاساسية على الاقل — فى جميع ميادين المعرفة التى نبخنها» .

ان الفلسفة الماركسية الناشئة قد تميزت عن المذهب الفويرباخى ، لا بتطبيق المبدأ المادى الانطلاقى بمزيد من الانسجام والنبات وحسب ، بل ايضا بموقف مختلف اختلافا جوهريا من تركة هيجل النظرية . ولئن كان فويرباخ قد نبذ بكل بساطة فلسفة هيجل — ومنهجها وطريققتها — كشيء لا يصلح البتة للاستعمال ، فان مؤسسى الماركسية قد اخذوا ،

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٥ .

اكتنفة انطلاقاً ، كما يقول انجلس ، الجانب
الثورى من هذه الفلسفة ، اى طريقتهما
الديالكتيكية . فبراسطة الديالكتيك وحده ،
كان يمكن اكتشاف قوانين التطور التاريخي
الفعليّة ، كما كان يمكن على هذا الاساس
تحديد السبل الاساسية لتحويل المجتمع القائم
تحويلاً جذرياً . ان الديالكتيك انما هو شكل
نظري مناسب للنضال الثورى العملى من اجل
تجديد العالم ، «لانه يشمل فى الوقت نفسه فى
الفهم الايجابى للموجود فهم انكاره ، وهلاكه
الضرورى ، وهو يعتبر كل شكل محقق فى
حركة وينظر بالتالى اليه من جانبه العابر ، وهو
لا يخضع لاي شىء وهو بحكم طبيعته انتقادى
وثورى» * .

ولكن مؤسس الماركسية ، كما يلاحظ
انجلس ، ادركا جيداً انه لا يمكنهما استعمال
الطريقة الديالكتيكية بالصورة التى صاغها بها
هيجل ، ذلك ان الديالكتيك المثالى الهيجلى

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٢ ، الجزء ١ ، ص ١١١ .

ليس سوى تطور ذاتى للمفاهيم تشكل العمليات
الديالكتيكية الجارية فى الطبيعة والمجتمع خاتمه
الشاحب . وحسب تعبير ماركس المجازى ،
«عند هيجل يقف الديالكتيك على رأسه .
فيجب ابقافه على قدميه لاجل نبيان الحجة
العقلانية تحت الغلاف الصوفى» * . وواجهت
النظرية الفلسفية الجديدة مهمة تفهم الديالكتيك
الهيجلى بطريقة جديدة ، مادية . وقد استطاع
مؤسس الماركسية اداء هذه المهمة . فقد شغلا
موقفا مادياً منسجماً وديالكتيكياً فى آن واحد
واخضعاً لتحليل العميق العالم الفعلى بالصورة
التي يتواجد بها فعلاً ، لا فى موضوعيته
المادية وحسب ، بل ايضاً فى الحركة والتغير ،
فى الصلة والتبعية المتبادلين ، فى التناقض
الداخلى . وبينما ان مختلف الافكار والمفاهيم
البشرية ليست كائنات مستقلة ، بل انعكاس
لاشياء وعمليات موجودة فعلاً . وهما فى
مؤلفاتهما يعتبران ان الطبيعة والمجتمع فى تغير

* ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٢ ، الجزء ١ ، ص ١١١ .

ماركس كان اعلى منا جميعا ، وكان يرى بعد
واوسع واسرع منا جميعا . ان ماركس كان
عبقريا ، اما نحن ، فكنا ، على أكثر تقدير ،
موهوبين . ولولاه لكانت نظريتنا بعيدة جدا عما
هي عليه اليوم . ولهذا تحمل اسمه بجدارة » .
وعليه ، كما يشير انجلس ، تقوم صلة
وثيقة وعسيقة بين النظرية الفلسفية الماركسية
والفلسفة الكلاسيكية الالمانية . ولكنه لا يصح
فهم هذه الاشارة بمعنى ان مذاهب المفكرين
الالمان هي المصدر الفلسفى الوحيد للماركسية .
فان ماركس وانجلس اللذين كانا يسلكان جعبة
فلسفية واسعة للغاية ومعارف اساسية فى ميدان
تاريخ الفلسفة ، قد كدسا ، فى سياق صياغة
نظريتهما ، المنجزات البارزة فى مختلف المدارس
والاتجاهات الفلسفية . وقد انطلقا فى ذلك
من ان نظريات الفلاسفة السابقين لم تحل
الافكار الفلسفية من المذهب الثورى وحسب ،
بل عللت كذلك افكاره الاجتماعية السياسية

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٥ .

كما عللت المثل العليا الاشتراكية والشيوعية .
فقد جاء فى اول مؤلف مشترك وضعه ماركس
وانجلس وهو «العائلة المقدسة» : «لا حاجة
الى حدة كبيرة من الذكاء لرؤية الصلة الضرورية
بين مذهب المادية عن ميل الناس الفطرى
الى الخير والمساواة بين كفاءاتهم الذهنية ،
وعن كلية قدرة الخبرة والعادة والتربية وعن
تأثير الظروف الخارجية فى الانسان ، وعن شأن
الصناعة الرفيع ، وعن شرعية المتعة ، الخ . -
وبين الشيوعية والاشتراكية» .

ان تعاليم بيبكون وسينوزا المادية ، ومفاهيم
ايقور وغولباخ الالحادية ، وعلم الاخلاق عند
هلفيسيرس ، ونظريات روسو وفورييه السوسيولوجية
قد مارست تأثيرا كبيرا فى نشوء وتطور النظرات
الفلسفية لمؤسسى الماركسية ، وحظيت فى
مؤلفاتهما برفع التقدير . ولكن مذهبه هبغل
وفورياخ لعبا مع ذلك دورا كبيرا جدا فى بناء الفلسفة
الماركسية . فعبّر استيعاب العناصر العقلانية

• ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية .
المجلد ٢١ ، ص ٣٠١ .

في هذين المذهبين بروح نقادة ، وعبر نحسين صياغتها من جديد ، وعبر تذليل النواقص واحادية الجانب فيهما وعبر تحويل ما فيهما من تخمينات وفرضيات الى موضوعات نظرية متطورة ، راقية ، مضى ماركس وانجلس في طريق ابتداء منهج فلسفي جديد مبدئيا رفع التفكير الى مستوى اعلى نوعيا .

وفضلا عن المقدمات الفلسفية لظهور الفلسفة الماركسية ، يذكر انجلس المقدمات من العلوم الطبيعية . فان بناء المادية الديالكتيكية بوصفها مذهبا عن القوانين العامة لحركة العالم الطبيعي والاجتماعي والتفكير البشري الذي يعكسها كان يتطلب مستوى من تطور علم الطبيعة على درجة من العلو تكفى لكي تعطى المادة التي توصلت اليها العلوم الخاصة البرهان الاكيد على صحة الفكرة القائلة ان نفس القوانين الديالكتيكية الكلية ، التي كانوا ينسبونها من قبل للتفكير وحده ، تسود كذلك في الطبيعة . وهذا المستوى بلغه علم الطبيعة ، كما يلاحظ انجلس ، في القرن التاسع عشر ، عندما لم يبق «بصورة

رئيسية علم التراكم ، علم الاشياء المنتهية التكوين» واصبح . . . من حيث الاساس ، علم التصنيف ، علم التفاعلات ، علما يتناول اصل وتطور هذه الاشياء والصلة التي تجمع تفاعلات الطبيعة هذه في كل واحد كبيرا . يبرز انجلس على الانحص ثلاثة اكتشافات كبرى ، قدمت البرهان المتقنع على انعطاف ثوري في تطور علوم الطبيعة ، وقوضت من حيث الاساس مواقع الميتافيزياء والمثالية في تفكير علماء الطبيعيات . وهذه الاكتشافات هي بناء نظرية البنية الخلوية للكائنات العضوية ، واكتشاف قانون بقاء الطاقة وتحويلها النوعي ، والنظرية العامة لتطور العالم النباتي والحيواني التي صاغها داروين ونبأه . «بفضل هذه الاكتشافات الثلاثة الكبرى ، وبفضل نجاحات العلوم الطبيعية الكبرى الاخرى ، نستطيع اليوم ان نبين الصلة القائمة بين تفاعلات الطبيعة في مختلف ميادينها ، وليس هذا فحسب ،

«ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٨ .

بل نستطيع ايضا ان نبين ، بوجه عام ، الصلة
التي تجمع هذه الميادين المختلفة . وهكذا
غدا من الممكن ، بواسطة المعلومات التي
تقدمها العلوم الطبيعية التجريبية نفسها ،
ان تعرض بشكل منهجي الى حد ما لوحة عامة
عن الطبيعة بوصفها وحدة متشابهة .

ان ظهور الفلسفة المادية الديالكتيكية ،
مثلها مثل المذهب الماركسي بمجمله ، لم
يشترطه نشوء مختلف المقدمات النظرية وحسب ،
بل اشترطه كذلك كل مجرى التطور التاريخي .
فقد ظهرت الماركسية كانعكاس ضروري موضوعيا
للتغيرات العميقة التي طرأت نحو الاربعينيات
من القرن التاسع عشر في الاقتصاد والبنية
الاجتماعية والنضال الطبقي في المجتمع الاوروبي
الغربي . ونحو ذلك الزمن ، لم يكن اسلوب
الانتاج الرأسمالي قد توطد نهائيا وحسب ،
بل كان كشف كذلك تناقضاته الداخلية التي
نبدت ، على الاخص ، في الازمات الاقتصادية

• ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات

المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٩ .

الدورية التي بدأت بعد سنة ١٨٢٥ . ثم ان
البرجوازية - سواء البرجوازية التي وصلت الى
الحكم كما في انجلترا او في فرنسا ، ام
البرجوازية التي كانت لا تزال خاضعة سلبا
للايستقراطية الاقطاعية كما في المانيا - كانت
قد فقدت طاقتها الثورية واخذت تعارض تحويل
المجتمع لاحقا بصورة جذرية . واخذت العلاقات
بين طبقات المجتمع الرأسمالي تتركز اكثر فاكتر
حول التناقض الرئيسي والجزري بين طبقيته
الاساسيين - البروليتاريا والبرجوازية . وطفقت
البروليتاريا التي تعاني الاضطهاد والعذاب في
بلدان اوروبا والتي كان ذرو الحول والطول يعتبرونها
قرحة محتمة لا مناص منها ولا شفاء لها في
جسد الحضارة البشرية ، تحول بنحو غير متوقع
اطلاقا بالنسبة لهم الى قوة مناضلة رهيبه .
وجميع هذه الظواهر الجديدة تطلبت دراستها
دراسة عميقة . ولم يكن ذلك ممكنا الا في
اطار ادراك كل التجربة التاريخية وتحديد ميول
التطور الاجتماعي . وكان الجواب عن هذه
المسائل المناضجة ظهور الماركسية التي استطاعت

ان تكشف قوانين التاريخ البشرى الاساسية وتبين آفاق التقدم الاجتماعى ، وذلك من مواقع الطبقة الاكثر تقدما والاكثر ثورية ، الطبقة التى تطابقت مصالحها بصورة موضوعية مع متطلبات التطور التاريخى .

وقد ادى اكتشاف القوانين الاجتماعية وبحثها الى بناء نظرية المادية التاريخية ، او كما سماها ماركس وانجلز ، الفهم المادى للتاريخ . فقد نجمت هذه النظرية عن سحب المبدأ المادى الانطلاقى القائم فى اساس كل منهج الماركسية الفلسفى الى ميدان الظاهرات الاجتماعية . وفيما يتعلق بالمجتمع ، عرض الحل الماركسى للمسألة الاساسية فى الفلسفة ، كما بين مؤسسا الماركسية ، الاعتراف بالمعيشة الاجتماعية عنصرا محددا ، وبالوعى الاجتماعى عنصرا تابعا . ولاحظ ماركس وانجلز : «... ان الوعى ... لا يمكنه ابدا ان يكون شيئا آخر غير الوجود المدرك ... والحال ان وجود الناس هو العملية الفعلية لحياتهم ... ليس الوعى هو الذى يحدد الحياة بل الحياة

هى التى تحدد الوعى » . وهذا الموقف بالذات هو الذى اتاح لهما ان يكونا فى تاريخ الفكر البشرى اول مفكرين يبينان علم المجتمع على اساس مادى راسخ .

اصبح ماركس وانجلز الماديين الاولين فى ميدان ادراك التاريخ . فجميع الفلاسفة قبلهما ، بصرف النظر عن آرائهم فى الطبيعة ، ظلوا فى ميدان التاريخ مثاليين . وكان ذلك مشروعا تماما بالنسبة لاولئك المفكرين الذين اعترفوا بأسبقية (باولية) الفكر ، الوعى ، بالنسبة للمادة . وفى ميدان الحياة الاجتماعية ، كما فى ميدان الطبيعة ، اناط هؤلاء المفكرون الدور الحاسم بالعبادة الربانية او بالعقل العالمى او بالفكرة المطلقة . ومن هذه المواقع اعتبروا مجرى التاريخ عملية مقررة سلفا فى سماتها ومراحلها الاساسية ، وبشكل تجسيد مبدئها الاول الروحى تدريجيا مضمونها . وقد كتب انجلز : «ومن وجهة النظر هذه ، نجم ان التاريخ عمل بشكل

• ماركس ، انجلز . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٢١ .

لاواع ولكن بالضرورة ، من اجل تحقيق هدف معروف مثالي : معين مسبقا ؛ فعند هبغل ، مثلا ، كان هذا الهدف تحقيق فكرته المطلقة ، كما ان السعى الدائم نحو هذه الفكرة المطلقة كون ، حسب رأيه ، العلاقة الداخلية فى الاحداث التاريخية» .

كان الحال اشد تعقدا بكثير بالنسبة للفلاسفة الذين حلوا ماديًا المسألة الاساسية فى الفلسفة . فلاجل توضيح الظواهرات والعمليات الاجتماعية ، لم يكن بوسعهم ان يلجؤوا الى مساعدة قوى غيبية ، خيالية ، لان من شأن هذا ان يناقض مراقبتهم المادية المنطقية . ولهذا وجهت الاغلبية الساحقة منهم ، مثل فورباخ ، انظارها الى الانسان لاعتبارها اياه «خلية» المجتمع «الاولى» . ولكن هؤلاء المفكرين لم يروا اساس الحياة الاجتماعية المادى الفعلى الذى يحدد منطق سلوك الافراد والفئات الاجتماعية والطبقات فخلصوا ، اساسا ، فى سياق البحث عن

«ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

عوامل محددة اخرى ، الى المثالية . وقد حاولوا ان يجدوا اسباب الاحداث التاريخية فى نشاط الناس الواعى وفى آخر المطاف ، - فى وعيهم ، فى الافكار التى يسترشد بها الناس . وبذلك خانت المادية السابقة لماركس نفسها فى مبدان التاريخ «اذ انها اعتبرت القوى الحافزة المثلث العاملة فيه الاسباب الاخيرة للاحداث» .

وبلغت انجلس الانتباه الى هذا الواقع ويبين سببه الاساسى . هذا السبب يتلخص ، من وجهة نظره ، فى الفرق المبدئى بين تاريخ المجتمع وتاريخ الطبيعة . اجل ، ان التطور هنا وهناك يخضع اجمالا لقوانين دبالكتيكية كلية ذات طابع موضوعى . ولكن فى الطبيعة لا يؤثر بعضها فى بعض غير قوى عمياء لاواعية ، وفى تأثيرها المتبادل تظهر القوانين العامة» . وما من عملية طبيعية تتحقق وفقا لهدف موضوع سلفا ، وطبعاً ، باستثناء تلك

«ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢١ .
«المرجع نفسه ، ص ٢٢٠ .

الحالات التي يستثيرها فيها الانسان : او حين
تجرى بمراقبته المباشرة لاجل تحقيق خططه .
ولهذا من الاسهل نسبيا ان نكتشف في الطبيعة
وراء فوضى الصدف الظاهرية فعل قوانين—
موضوعية عامة .

الا ان وضع الامور يختلف اختلافا مبدئيا
في تاريخ المجتمع حيث «يفعل الناس الذين
لهم موهبة الوعي ، ويعملون بتفكير او بتأثير
عاطفة وينشدون اهدافا معينة . ولا يصنع هنا
شيء دون نية واعية ، ودون هدف منشود» .
فان هذا العامل بالذات يقرر صعوبة معرفة كنه
الاحداث الاجتماعية وتلك القوانين الموضوعية
التي نرتكر عليها افكار الناس ومطامحهم ومساعيهم
ونصرفاتهم . وقد كانت المادية السابقة ، كما
يلاحظ انجلز ، تشكو من نقص جوهرى ،
قوامه انها لم تطرح البتة مسألة الاسس العميقة
لنلك القوى الحافزة المثالية التي كانت تحدد
النشاط البشرى . وخلافا لها ، دعا كثيرون من

« ماركس ، انجلز . منتخبات في ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٠ .

المثاليين ، وفي المقام الاول ، ممثلو المثالية
الديالكتيكية وعلى رأسهم هيجل ، الى بحث
ودراسة الاسباب الخفية عن الادراك المباشر
للاحداث التاريخية . ولكنهم لم يجدوا هذه
الاسباب في التاريخ بالذات ، بل وجدوها
في مفهومهم الفلسفى المثالى ، الامر الذى
لم يساعدهم كذلك على التقدم فى الطريق
الى تفهم قوانين التطور الاجتماعى الفعلية .
كيف تحل اذن الفلسفة الماركسية والفهم
المادى للتاريخ ، مسألة جوهر الاسباب الاولى
لنشاط البشرى ؟

اولا . ان هذه النظرية ترفض البحث عنها
فى افكار الناس وتطلعاتهم ، حتى ولو كان
هؤلاء من الشخصيات التاريخية البارزة . وهى
فى ذلك تنطلق من الواقع التجريبي الذى
ينأكد يوميا ، وهو ان الحياة الاجتماعية نتيجة
مصادمة وتفاعل وتضاد وصراع بين عدد لا
يحصى من المطامح الفردية ، ومن جراء هذا
نرى ان الاكثرية الساحقة من الاهداف الموضوعية
عن وعى ، اما لا تتحقق البتة ، واما تؤول الى

عواقب غير متوقعة اطلاقا . وهذا يعنى انه يجب
الا تؤخذ بالحسبان «خوافز الافراد وان اشدّهم
بروزا ، بقدر الخوافز التى تحرك جماهير كبيرة
من الناس ، شعوبا بأسرها ، وفى كل شعب ،
بدوره ، طبقات بأسرها» . ان البحث عن
الاسباب الفعلية التى تحرك اعمال الجماهير
الشعبية والتى يمكن ان تنعكس فى رؤوس
المشاركين المباشرين بشكل خيالى ، غريب ،
مشوه ، انما هو ، برأى انجلس ، السبيل
الوحيد الى معرفة القوانين الاجتماعية .

ولكن اداء هذه المهمة لم يصبح ممكنا
الا حين بلغ التاريخ مرحلة تبت فيها بكل
جلاء الصلة بين اسباب التطور الاجتماعى
الفعلية وعواقبها . وقد حدث هذا فى الثلث
الاول من القرن التاسع عشر حين تركّز الصراع
السياسى والفكرى كله ، بفضل تطوير اسلوب
الانتاج الرأسمالى فى انجلترا وفرنسا فى المقام
الاول ، حول سعى طبقتين الى السيادة ،

«ماركس ، انجلس ، منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٢ .

هما طبقة الاريسقراطية العقارية وطبقة البرجوازية
اللتان سرعان ما انضمت اليهما البروليتاريا التى
برزت فى اوائل الثلاثينيات كقوة سياسية مستقلة .
وقد كتب انجلس : «وقد بلغت العلاقات
درجة من البساطة بحيث ان الناس الذين اغمضوا
عيونهم عمدا هم وحدهم الذين لم يستطيعوا
ان يروا ان فى صراع هذه الطبقات الثلاث
الكبرى وفى تصادم مصالحها تكمن القوة المحركة
لكل التاريخ الحديث ، على الاقل فى هذين
البلدين الاكثر تطورا» .

ولكن الاعتراف بهذا الواقع تبعه حتما
الاعتراف بان الصراع بين هذه الطبقات ،
وفى المقام الاول بين البروليتاريا والبرجوازية ،
لا يدور بدافع مبادئ روحية ، بل بدافع مصالح
مادية ، اقتصادية . وفضلا عن ذلك ، كانت
الوقائع التاريخية تدل على ان ظهور هذه الطبقات
قد استدعته قبل كل شىء التغيرات فى اسلوب
انتاج الخيرات المادية . وهكذا جاء تحليل

«ماركس ، انجلس ، منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٣ .

المادة ، التي تعود على الاقل الى التاريخ الحديث ، يقدم البرهان المقنع على ضرورة البحث عن الاسباب الجذرية للعمليات الاجتماعية في ميدان الانتاج المادى ، في ميدان العلاقات الاقتصادية .

لقد انطلق ماركس وانجلس فى صياغة المفهوم المادى الديالكتيكى عن التاريخ من ذلك الواقع البسيط والطبيعى ، هو انه يتوجب على الناس ، قبل ان ينصرفوا الى العلم والسياسة والفلسفة والدين وما الى ذلك ، ان يأكلوا ، ويشربوا ويلبسوا ، وان يكون لهم مسكن ، والخ . ، اى انه يتوجب عليهم لاجل الحفاظ على حياتهم ان يملكو احتياطيا معينا من الخيرات المادية . ولكن ليس جميع الاشياء الضرورية لهم يمكن ايجادها فى كل لحظة ، جاهزة فى العالم المحيط بهم ، فيتجهونها فى هذه الحال . وفى قدرة الناس على صنع المستوجات الضرورية لهم ، فى هذه القدرة بالذات ، رأى مؤسسا الماركسية ، اهم صفاتهم . فقد كتب : «يمكن تمييز الناس عن الحيوانات

من حيث الوعى ، من حيث الدين — وعلى العموم باى شىء كان . وهم انفسهم يبدأون يميزون انفسهم عن الحيوانات ما ان يبدأوا ينتجون وسائل العيش الضرورية لهم — وهذه خطوة بشرطها تنظيمهم البدنى » .

وبديهى ان بعض المفكرين قد لفتوا الانتباه من قبل ايضا الى الدور الهام الذى يضطلع به الانتاج المادى فى حياة الناس . بيد انهم اعتبروا الانتاج ضرورة حيوية ولكن خارج التاريخ . ولم يروا واقع ان اسلوب الانتاج يحدد مجرى التطور التاريخى ويتغير مع ممر التاريخ . وقد استطاع مؤسسا الماركسية ، خلافا لاسلافهما ، ان يبينوا الدور الحاسم لاسلوب الانتاج وبرزوا علاقات الانتاج بوصفها البناء التحدى الاقتصادى للمجتمع والحلقة المركزية لجميع العلاقات الاجتماعية .

ان تعريف العلاقات الاقتصادية المادية بانها اساس كل نظام العلاقات الاجتماعية كله

• ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ١٥ .

قد اتاح النظر الى تطور المجتمع كما الى عملية موضوعية مراحلها الاساسية مشتركة بين مختلف الشعوب .

وبفضل ذلك ، تبين ان من الممكن فرز المشترك في النظام الاجتماعى فى مختلف البلدان وتعميم اوضاعها فى مفهوم اساسى واحد هو التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية . وقد كتب لينين يقول : «وهذا التعميم وحده هو الذى اتاح الانتقال من وصف الظواهر الاجتماعية (ومن تقديرها من وجهة نظر المثال الاعلى) الى تحليلها تحليلًا علميًا دقيقًا يفرز ، مثلاً ، ما يميز بلداً رأسمالياً عن آخر ويدرس ما هو مشترك بين جميع البلدان الرأسمالية» . ثم ان تعاقب مختلف العهود فى تاريخ البشرية برز بدوره كعملية مشروعة ومشروطة موضوعياً هى عملية تعاقب اساليب الانتاج التى تتقدم من عهد الى عهد . وفى اساس التطور التدريجى المتواصل

« لينين . مختارات فى ١٠ مجلدات ، المجلد ١ ،

ص ٤٧ .

لاساليب الانتاج ، يكمن التناقض الناشئ على الدوام بين مستوى القوى المنتجة التى تقوم بدور المضمون الداخلى لعملية التطور ، وبين علاقات انتاج معينة . وكل عهد تاريخى ، كما بين ماركس وانجلز ، يتصف بمقدمات موضوعية لتطوره اى بوجود عدد معين من الافراد ووجود قوى منتجة معينة وعلاقات انتاج معينة . والناس ليسوا احراراً فى اختيار هذه المقدمات ؛ فان كل مجرى التطور السابق للمجتمع يعطيها بوصفها شروطاً فعلية لنشاطهم الحيوى ، وبصفتها هذه تملئ اشكالا مناسبة للنشاط .

وقد اكد ماركس وانجلز على الطابع المشروع والموضوعى للتطور التاريخى ، ولكنها اشارا فى الوقت نفسه الى الدور الفعال لنشاط الناس الذين ليسوا نتاجاً للظروف وحسب ، بل يخلقون كذلك هذه الظروف . وكل جيل جديد من الناس يغير بنشاطه الظروف الموضوعية لحياة المجتمع وبذلك . . . يتشكل تاريخ البشرية الذى يصبح اكثر فاكثراً تاريخ البشرية بقدر ما تنامي قوى الناس المنتجة ، وبالتالي علاقاتهم

بفضل الطريقة المادية الديالكتيكية ، برز التطور الاجتماعى فى مؤلفات مؤسسى الماركسية ، بمثابة عملية تاريخية طبيعية ، بمثابة تعاقب مشروع لعضويات اجتماعية الواحدة تلو الاخرى . ومحل مفهوم «المجتمع على العموم» ، حل مفهوم ملموس هو مفهوم التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية الذى يعبر عن الصلة العضوية المتبادلة بين جميع جوانب الحياة الاجتماعية فى ظل الدور الحاسم للنتاج المادى . وقد كتب ماركس : «نقوم بين الناس ، اثناء الانتاج الاجتماعى لحياتهم : علاقات معينة ضرورية ، مستقلة عن ارادتهم ، هى علاقات الانتاج التى تطابق درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية . ومجموع علاقات الانتاج هذه يؤلف البناء الاقتصادى للمجتمع ، اى الاساس الواقعى الذى يقوم عليه بناء فوقى حقوقى وسياسى وتطابقه اشكال معينة من الوعى الاجتماعى .

« ماركس ، انجلس . رسائل مختارة . دار التقدم . موسكو . سنة ١٩٨٢ ، ص ٣٢ .

ان اسلوب انتاج الحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعى والسياسى والفكرى ، بصورة عامة . فليس ادراك الناس هو الذى يعين معيشتهم ، بل على العكس من ذلك ، معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين ادراكهم» . وكشف ماركس وانجلس الالية الملموسة لتعاقب التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ، وابانا ان قوى المجتمع المنتجة تتجاوز عاجلا او آجلا ، فى سياق تطورها ، علاقات الانتاج القائمة . وهذا التناقض بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج يجد حلا له بحيث نحل محل علاقات الانتاج السابقة التى امست قيودا فى وجه القوى المنتجة المتنامية ، علاقات انتاج جديدة تفسح المجال امام تقدم القوى المنتجة . وهذا التناقض ينعكس فى نضال الطبقات المتعادية فى المجتمع التناحرى ، وهذا النضال يودى الى الثورة الاجتماعية . واذا كان اسلوب الانتاج هو العامل المحدد

« ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ٢ ، ص ٢٥٢-٢٥٣ .

لتطور التاريخي ، فإن النضال الطبقي هو القوة المحركة لهذا التطور في التشكيلات الاجتماعية التناحرية . وقد كتب انجلز عن المادية التاريخية انها تعنى «مفهومها عن مجرى التاريخ العالمى يرى السبب الاول والقوة المحركة الحاسمة لجميع الاحداث التاريخية الهامة فى تطور المجتمع الاقتصادى ، فى تغيرات اسلوب الانتاج والتبادل ، فى انقسام المجتمع الى طبقات مختلفة من جراء ذلك ، فى الصراع بين هذه الطبقات» .

ومع عرض هذه الموضوعات الاساسية فى الفهم المادى للتاريخ ، بين انجلز فى الفصل الاخير من مؤلفه «لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» بثبات وانسجام تبعية مختلف جوانب حياة المجتمع حيال اسلوب انتاج الخيرات المادية . وعلى سبيل المثال الاول ، اخذ العلاقات المتبادلة بين البناء التحنى الاقتصادى والدولة التى تبرز من النظرة

«ماركس ، انجلز ، منتخبات فى ثلاثة مجلدات .

المجلد ٣ ، الجزء ١ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

الاولى الى تاريخ البشرية بمثابة قوة جبارة ، مستقلة تماما عن سائر المؤسسات الاجتماعية . وفضلا عن ذلك كانت الدولة تظهر فى مؤلفات المفكرين ما قبل ماركس مجالاً للحياة الاجتماعية يحدد جميع مجالاتها الاخرى ، بما فى ذلك «المجتمع المدنى» ، كما كانوا يسمون فى اواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ميدان العلاقات الاقتصادية . ولقد كان ماركس وانجلز اول مؤلفين يكشفان تبعية الدولة حيال مصالح تلك الطبقة التى هى الطبقة السائدة فى ميدان الانتاج . ان دراسة المادية التاريخية دراسة جدية وغير متحيزة ، كما يقول انجلز ، تؤدي الى القول «ان ارادة الدولة . . . تحددتها اجمالا وكلها الحاجات المتغيرة للمجتمع المدنى ، وسيطرة هذه الطبقة او تلك ، وفى آخر الامر ، تطور القوى المنتجة وعلاقات التبادل» .

وبمثال الدين ايضا ، اى بذلك الشكل للوعى الاجتماعى الذى هو الابدع ، على ما

«ماركس ، انجلز ، منتخبات فى ثلاثة مجلدات .

المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٢٥ .

يبدو ، عن ميدان الانتاج المادى ، يبرهن
انجلس توقف جميع جوانب حياة المجتمع
بصورة مبدئية على العلاقات الاقتصادية ومصالح
الطبقات المتضادة . وقد توسع فى صياغة
الموضوعة التى سبق ان عرضها فى مؤلفه «ضد
دوهرينغ» والتى تقول ان «الدين ، كل دين ،
ليس سوى انعكاس خيالى فى رؤوس الناس
لتنك القوى الخارجية التى تسود عليهم فى
حياتهم اليومية ، انعكاس تتخذ فيه القوى
الارضية شكل القوى غير الارضية» .

وبايراد امثلة من تاريخ المسيحية ، بين
انجلس ان التصورات الدينية ، بالرغم من
تطورها بموجب قوانينها الخاصة ، واتجاه هذا التطور
ومضمونه ان كل هذا يرتبط مع ذلك اوثق
ارتباط بالتغيرات فى حياة المجتمع الاجتماعية
والاقتصادية . فان استتاب المسيحية بوصفها
دينا عالميا ، مثلا ، قد اشترطه فى آخر
الامر ، نشوء الامبراطورية العالمية الرومانية التى

«ماركس ، انجلس . المؤلفات . الطبعة الروسية الثانية .
المجلد ٢٠ ، ص ٣٢٨ .

لم يكن عليها ان توحد الشعوب المقهورة سياسيا
وحسب ، بل ان يوحدتها ايدولوجيا ايضا . ثم
ان ظهور البروتستانتية تجاوب بدوره مع مصالح
الطبقة الناشئة ، طبقة البرجوازية ، التى رافق
نضالها ضد الاوضاع الاقطاعية فى ميدان
الاقتصاد والسياسة النضال ضد الكاثوليكية
بوصفها الايدولوجية الدينية الرسمية .

ان هذه وغيرها من الامثلة تتيح لانجلس
ان يستخلص «ان الدين ، ما ان بنشأ ، حتى
يحتفظ دائما باحتياط معين من التخيلات
الموروثة عن الازمنة السابقة لان التقليد فى جميع
الميادين الايدولوجية بوجه عام هو قوة محافظة كبرى .
ولكن التغيرات التى تحدث فى احتياط التخيلات
هذا تحددها العلاقات الطبقة ، اى العلاقات
الاقتصادية بين الناس الذين يقومون بهذه
التغيرات» .

وفى الوقت نفسه يؤكد انجلس ان الوعى
الاجتماعى والمؤسسات السياسية على السواء

«ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات .
المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

تمارس تأثيرا معاكسا فعلا في المعيشة الاجتماعية ،
وفي تطور الانتاج المادى . ان يوسع الافكار
والنظريات والنظرات الاجتماعية ، وتطبيقها في
ميدان النشاط السياسى ممارسة تأثير جوهري
في مجرى التطور التاريخى . وهذه المسألة
ستسترعى انتباه انجلس حتى بعد صدور مؤلفه
«لودفيغ فون براخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية
الالمانية» . ففي احدى رسائله من المرحلة
اللاحقة ، عرض انجلس ، على ضوء مثال
العلاقات المتبادلة بين البناء التحتى الاقتصادى
والدولة ، الصيغ المحتملة لتأثير الدولة المعاكس
في الاقتصاد . «ان تأثير السلطة السياسية
المقابل في التطور الاقتصادى يمكن ان يكون
ثلاثى الوجه . فقد تفعل فى نفس اتجاه
التطور فيسير التطور بمزيد من السرعة ؛ او قد
تفعل ضد اتجاه التطور الاقتصادى ، فتمنى
بالاخفاق فى الوقت الحاضر عند شعب كبير
بعد مرور حقبة معينة من الزمن ؛ او قد تقيم
عقبات امام التطور الاقتصادى فى اتجاهات
معينة وتدفعه فى اتجاهات اخرى . وهذه الحالة

تتول فى آخر المطاف الى احدى الحالتين
السابقتين ، ولكنه واضح انه من الممكن
ان تسبب السلطة السياسية فى الحالتين الثانية
والثالثة للتطور الاقتصادى بافدح الضرر وببذير
القوى والمواد بمقادير كبيرة جدا» .

ان حل هذه المسألة على هذا النحو يبرهن
بجلاء طابع النظرية التاريخية الماركسية المادى
والدباليكتيكى سواء بسواء ؛ فان هذه النظرية
تتناول المجتمع بوصفه عضوية متكاملة تتواجد
اجزاؤها المكونة فى وحدة عضوية وصلة متبادلة
لا انفصام لعرها . وبفضل الدقة العلمية وسعة
الطريقة المتبعة لدراسة الظواهر والعمليات
الاجتماعية ، لا تزال فلسفة المادية التاريخية
اليوم ايضا اساسا منهجيا موثوقا لاجل البحوث
التاريخية الملموسة .

«ماركس ، انجلس ، رسائل مختارة . دار التقدم .
موسكو ، سنة ١٩٨٢ ، ص ٣٠٧ .

الحركة العمالية الثورية .

وقدم مؤسسا الماركسية البرهان المقنع على ان الفلسفة كانت دائما احدى الادوات الاساسية في الصراع الفكرى بين مختلف الفئات الاجتماعية ، ومسرحا للمصادمات النظرية بين الاحزاب السياسية . ان الفلسفة ، من حيث جوهرها بالذات ، بوصفها نواة العقيدة ، تسم بطابع طبقى ، وبالتالي بطابع حزبي . وكما تكون طبيعة هذه الطبقة او تلك ، وكما يكون وضعها في نظام العلاقات الاجتماعية وكما تكون بالنالى رسالتها التاريخية النابعة من هنا ، كذلك تكون عقيدتها الفلسفية .

لقد برز ماركس وانجلس ، منذ بادئ بدء نشاطهما الثورى ، كايديولوجى الطبقة العاملة . فقد كانا على اقتناع عميق بان الغاية الحقيقية من الفلسفة لا تقوم فى بحث المسائل المجردة ، البعيدة عن الحياة الفعلية ، بل تقوم فى تحليل قضايا التطور الاجتماعى الحيوية . يجب على الفلسفة ان تستدير بوجهها نحو الممارسة الاجتماعية وتعلل مهماتها الاساسية وسبل

لقد اثبت انجلس بصورة مقنعة فى مؤلفه «لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية» ان نشوء الماركسية بمجملها ، ونشوء الفلسفة الماركسية بوصفها جزءا مكونا من اجزائها ، قد اشترطته الضرورة العلمية النظرية ، والضرورة الاجتماعية الاقتصادية ، والضرورة السياسية المباشرة . وقد تطابق بصورة شرعية محتمة من حيث الزمن مع ظهور البروليتاريا فى مسرح التاريخ بوصفها قوة سياسية مستقلة . وتحليل الواقع الاجتماعى تحليلا عميقا وشاملا ، وعلى اساس استيعاب كل ايجابى انشئ قبلهما فى ميادين الفلسفة والعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية ، وعلى اساس اعادة صياغته بعين نقادة ، بنى ماركس وانجلس عقيدة جديدة نوعيا هى عقيدة الطبقة العاملة ، التى صارت الاساس الفلسفى لنظرية الشيوعية العلمية وممارسة

تحقيقها . « ان الفلاسفة لم يفعلوا غير ان فسروا العالم باشكال مختلفة ، ولكن المهمة تقوم في تغييره » . هكذا حدد ماركس الانجاه الرئيسى فى صياغة النظرية الفلسفية الجديدة . ان الاهمية الاجتماعية والسياسية التى تسم بها الفلسفة الماركسية تنجم من كونها تشكل الاساس النظرى لعقيدة البروليتاريا ، وتبرهن بالسبيل العلمى حتمية هلاك الرأسمالية وانتصار الاشتراكية والشيوعية . ان الاشتراكية التى تحولت من طوباوية الى علم قد دلت البروليتاريا وحزبها على السبيل الصحيح الوحيد للنضال الثورى من اجل بناء المجتمع الجديد . وكان ينبغى ان يصبح تحويل المعيشة الاجتماعية والميدان الاجتماعى والاقتصادى من حياة المجتمع تحولا جذريا ، كما كان ينبع من الفهم المادى للتاريخ ، المضمون الاساسى للنضال الثورى . بل ان فكرة الثورة الاجتماعية التى تقوم بها البروليتاريا ترتبط ارتباطا لا انفصام لعراه

« ماركس ، انجلس . منتخبات فى ثلاثة مجلدات . المجلد ١ ، الجزء ١ ، ص ٩ .

بالموقف المادى الديالكتيكى من العملية التاريخية ؛ فان الديالكتيك ، كما ثبت انجلس بجلاء فى مؤلفه الذى درسناه ، ينبذ كل متحجر ومحافظ وبال ؛ ويعترف بالحركة المتواصلة الى الامام ، بالنضال المتصاعد من اجل تجديد العالم تجديدا ثوريا ، ويؤكدهما .

وفى معرض بناء النظرية الفلسفية الجديدة ، كان ماركس وانجلس واثقين على الدوام بان فئات واسعة من العمال ستفهمها وبانها ستأخذها سلاحا روحيا ماضيا فى كفاحها الثورى . وثقتهما هذه تبررت كليا . فان الحركة العمالية التى اشتد ساعدها وترسخت اقدامها فى غمار المعارك الطبقة الطاحنة ، قد صارت بالنسبة للفلسفة الجديدة ذلك « السلاح المادى » الذى كتب عنه ماركس فى اواسط الاربعينيات من القرن التاسع عشر .

ففى سبيل ثورى واحد اندمجت النظرية الماركسية التى تناضل بشجاعة ضد المجتمع البرجوازى

« راجع : ماركس ، انجلس . بصدد الثورة الاشتراكية . دار التقدم . موسكو ، سنة ١٩٨٣ . ص ٣١ .

ونفضح عيوبه وتناقضاته ، ونضال الطبقة العاملة
 الشجاع ضد سيادة البرجوازية . ولقد اشار انجلس
 الى مشروعية هذا الواقع في خاتمة مؤلفه :
 « . . . فبقدر ما يتقدم العلم ببسالة واقدام ،
 بقدر ما يجد نفسه متفقا مع مصالح واهداف
 العمال . ان الاتجاه الجديد (والمقصود هنا
 الفلسفة الماركسية — المؤلف) الذي وجد في
 تاريخ تطور العمل المفتاح لفهم كل تاريخ
 المجتمع ، قد خاطب منذ البدء الطبقة
 العاملة بالدرجة الاولى ، ووجد من جانبها ذاك
 العطف الذي لم يبحث عنه ولم ينتظره عند
 العلم الرسمي » . ومرة اخرى أكد انجلس في الخاتمة
 على الصلة الوثيقة بين الماركسية وبين ممثلي الفكر
 الفلسفي الالمانى البارزين ، وختم عمله
 بالكلمات التالية : « ان الحركة العمالية
 الالمانية هي وريثة الفلسفة الكلاسيكية
 الالمانية » .

« ماركس ، انجلس . منتخبات في ثلاثة مجلدات .
 المجلد ٣ ، الجزء ٢ ، ص ٢٣٢ .

محتويات

٣	تاريخ كتابة المؤلف
١٩	فلسفة هيغل ودورها في التاريخ
٥٢	المسألة الاساسية في الفلسفة . نقد اللاعرفانية والمادية الميتافيزيقية
٨٣	مثالية المادى فويرباخ
١٠٥	الانقلاب الثورى في الفلسفة
١٣٨	الخاتمة